الأعمال الكاملة

الوسطية العربية

مذهب وتطبيق

الكتاب الخامس

حلم ليلة القدر

(رواية عربية)

تأليف

دكتور عبد الحميد إبراهيم



دار المعارف

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

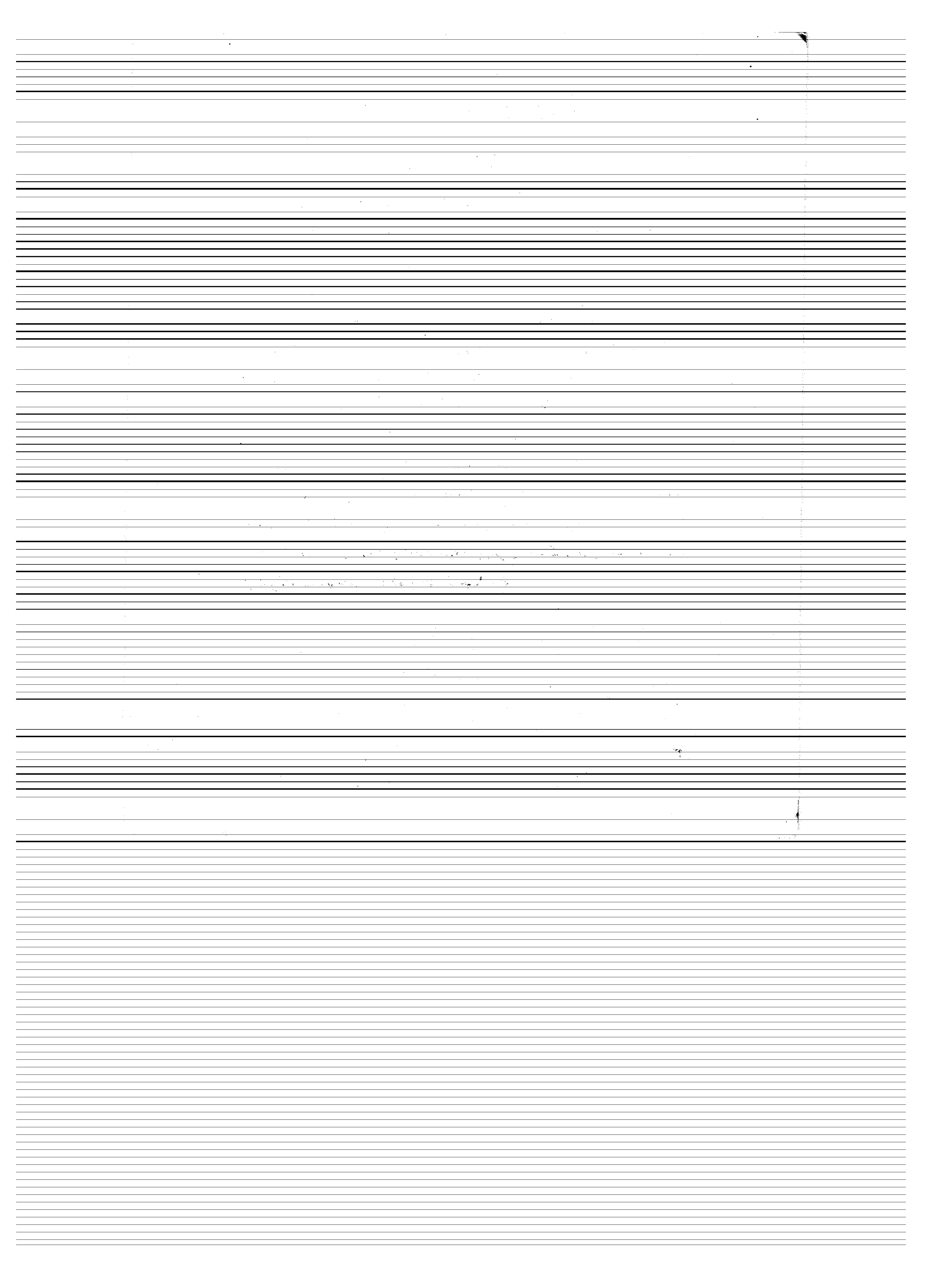
مُقدّمة

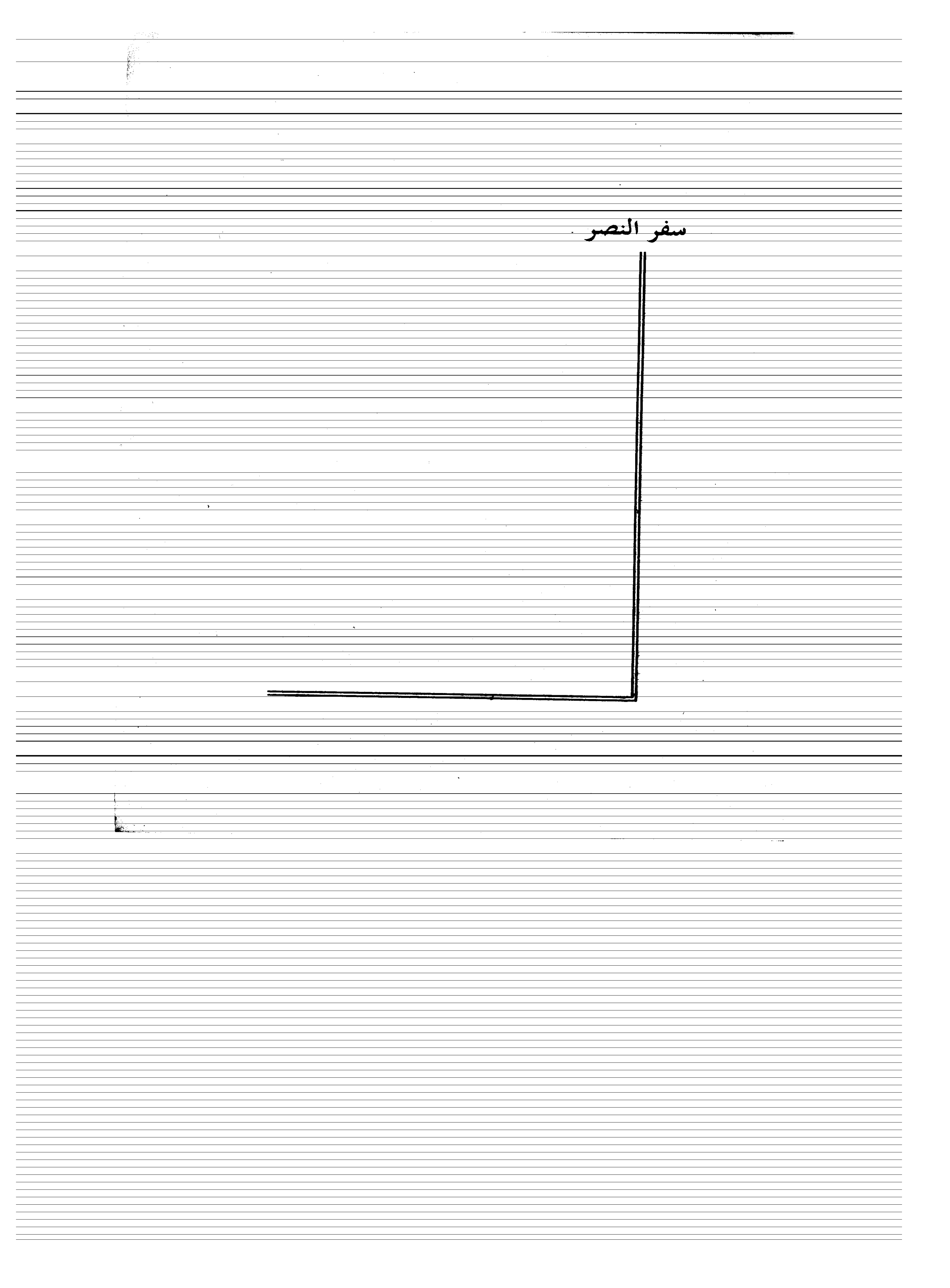
الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه ، وأصلي وأسلم على خير خلق الله ، محمد بن عبد الله ، وعلى آله الغر الميامين ، وأصحابه البررة الطاهرين .

وبعد ، فقد رانت على النفس قتامة ، وعلى القلب جهامة ، كتبت كتابي " الوسطية العربية " ، وأوقفت عليه جل عمري ، ومعظم دهري ، وأودعته الأخبار والأفكار ، وظننته يسر الأخيار . ولكن الإخوان غفر الله لهم يمرون عليه ، ولا يلقون بالاً إليه . ما بين مقتبس منه لا يشير إليه ، ومتعجل لا يلتفت إليه ، فأخذت أشكو إلى الله ضعفي وقلة حيلتي وهواني على الناس .

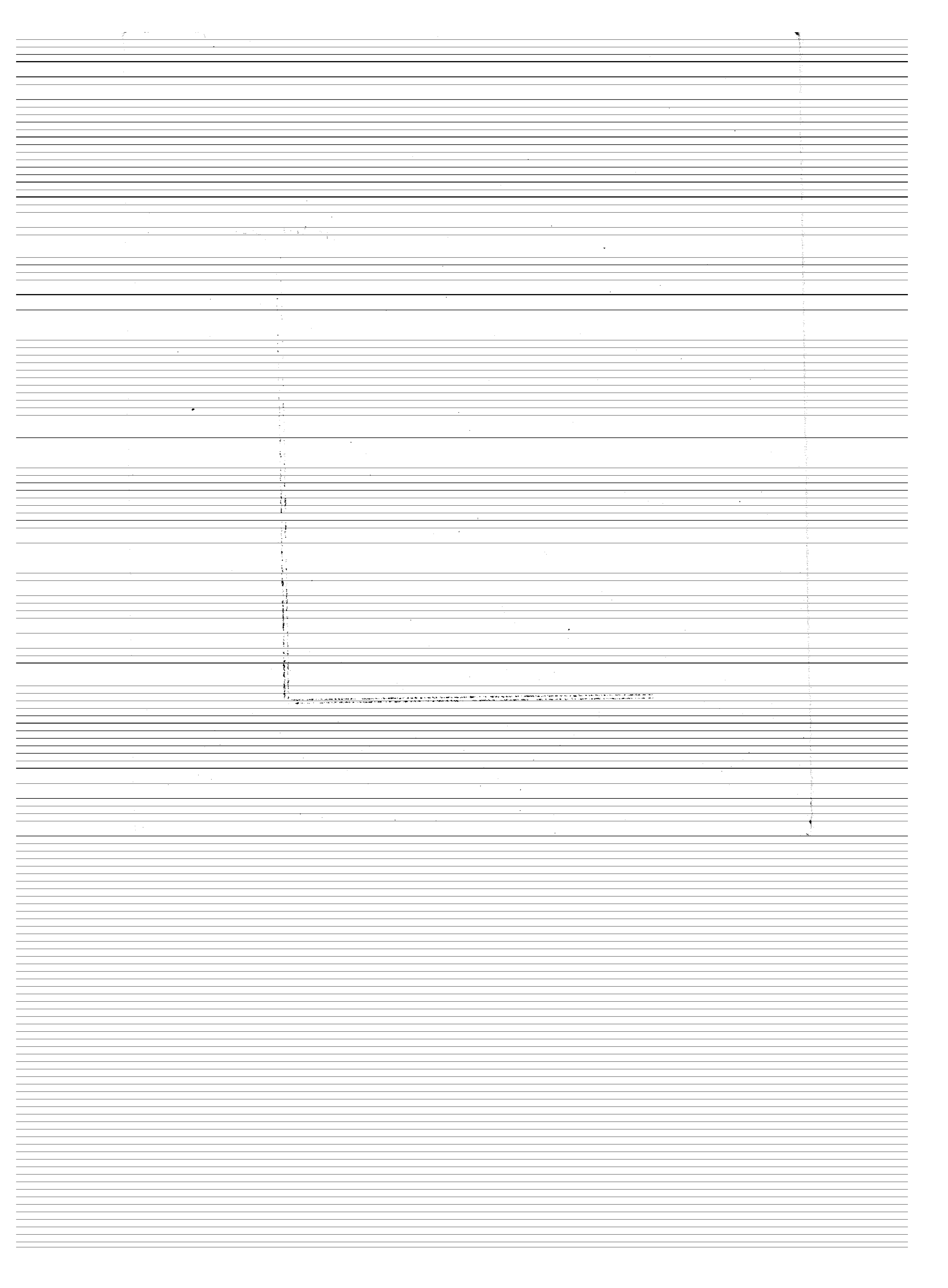
كانت الليلة ليلة القدر ، التي يفرق فيها كل أمر ، ليلة السابع والعشرين من رمضان الكريم ، سنة سبع وأربعمائة بعد الألف ، من هجرة سيد الخلق ، فكان أن غشيتني طائفة من النعاس ، نعمة من رب الناس .

﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ .





سفر النصر



١

الهواء غير الهواء ، والأثير يحمل تشكيلات خاصة يستطيع فك رموزها.

كان الموسم موسم الحج ، طاف بالمشاهد التي كان يسمع ويقرأ عنها منذ صباه ، بدر ، أحد ، البقيع ، زمزم ، عرفات ، منى ، الصفا والمروة . لم يجد آثاراً شاهقة ، ولا معابد ضخمة .

ولكنه أدرك أن الظاهر ليس هو كل شيء ، وأن هناك حضارة لا تجد نفسها في العمارات ولا المباني الشاهقه ، بل تحمل تراثها خلال الهواء ، يعيشه الأبناء والأحفاد يتنفسونه ويتفهمونه .

وعرف أن الإنسان ليس جسداً فحسب ، ولكنه نفس أيضاً يسري في الأثير ، ويحوله إلى تشكيلات خاصة ، إلى لغه تنتظر من يفهم سرها .

وتعجب من هؤلاء الذين يريدون أن يفصلوا الكون عن الإنسان ، إنهم يقفون عند الظاهر ، عند الشيء الغفل ، ويحرمون الكون من نفسه ، الإنسان هونفس الكون ، هو سره ، هو الاسم الذي يعطيه معناه ، وتذكر قصة لجريليه ، نسي منها كل شيء حتى عنوانها ، ولم يبق منها في ذاكرته إلا رائحة القهوة تصدر من الفنجان ، إن تلك الرائحة الساخنه تشي بأن إنساناً كان هنا ، ثم غادر المسرح تاركاً وراءه أنفاسه تعمر المكان .

وتوصل وهو في مكانه امام جبل أُحد إلى نتيجة ، وهي أن الحضارة لا تقاس بالمباني الشاهقه ولا العمارات الضخمة ، ولكنها تقاس بأنفاس الإنسان ، وهي تشكل الاثير ، وجرب ذلك عملياً في سفراته المتعدده ، كان يحط في انجلترا فيحس أن الهواء محمل بلغة قد لا يفهمها ، ولكنه يحس أن تلك اللغة تحمل تشكيلات موسيقية تختلف عما تلتقطه أذناه حين يذهب إلى الصين ، أو حين يرحل إلى القاهرة .

وتدربت أذناه على ذلك . فكان يقيس حضارة البلد بلغة أثيرها ، وكان يدرك من ذلك خصوصيتها ، ولم تعد تخدعه الظواهر الخارجية ، فقد تكون براقة تحجب عنه اللغة الحقيقية كان يحط في بعض البلدان الإفريقية ، يجد فيها الشوارع المستقيمة ، والعمارات الفخمة ، ولكنه يتحسس أثيرها ، فيذكره بالأجواء الأوروبية ، ويدرك على الفور أن الحضارة الخارجية التي يراها إنما هي وهم وخداع ، وأنها قد أنجزت وراء الإنسان .

هبط مرة إلى القاهرة بعد غيبة طويلة ، فحمل إليه الهواء أصواتاً خشنة ، ونبرات متداخلة ونغمات مجروحة ، لم ينفر فتلك لغة الهواء ، لغة تحمل أنفاس الناس وهمومهم ، لغة هي منهم وإليهم ، خير من أن تستعير تشكيلات أخرى ، قد تكون رضية هنية ، ولكنها غريبه كأقنعة المسارح .

واندمج في الأصوات الخشنة التي غاب عنها فترة طويلة ، وحمل إليه الهواء من بعيد نهيق حمار ، ونباح كلب ، وصياح ديك ، وبكاء طفل ، كانت الأصوات تتداخل وتتحول إلى كتله واحدة بفعل جاذبية عجيبة ، لم يعد يتبين خشونة الأصوات ولا تضاربها ، بل وجد نفسه قريباً من روح واحده تضم الجميع .

وفجأة سكتت كل هذه الأصوات وارتفع صوت المؤذن وحده يخترق الاثير ، ويمضي ومعه كل الأصوات نحو السماء ، لم يكن الصوت صوت مؤذن فرد ، بل كان صوت مجموعة من الأرواح الأثيرية تتراقص في الفضاء.

عند هذا الحد أدرك أنه لا يستطيع أن يمضي في تأملاته ، فقد أحس بشيء يتشكل داخله فطوح الأوراق ، وجر نفسه إلى فراشه متثاقلاً كأم تنتظر المخاض .

★

٢

رأى طائراً يجول في المنطقة ، لم يكن قد رآه من قبل ، ولكنه كان أليفاً إلى نفسه ، ليس مثله طائراً من طيوز المنطقة ، وتذكر على الفور طائر "الكاه" ، لا يجد له نظيراً بين الطيور ولكنه يجده مرسوماً على جدران المعابد المصرية ، يقولون إنه يمثل روح الميت ، ويتلو الأهل الأدعية من كتاب الموتى المقدس ، حتى يعود هذا الروح إلى الجسد الهامد ، فينهض واقفاً من جديد .

وتذكر حديث البوذيين عن أن الروح لا تفنى ، إنها تخرج من الميت وتجول في المنطقة ، وتبحث عن الشخص الموعود لكي تحل فيه .

وتوالت عليه الذكريات من قريته ، كان الناس لا يحزنون من أجل الميت ، بل ينظرون إلى أولاده ، وكأنه قد ولد فيهم من جديد ويرددون "ما مات من خلف" ، وكانوا يحسون بروح الميت وهي ترفرف على الدار في المناسبات المختلفة ، تبارك نجاح الابن ، وتقدم التهنئة للبنت .

وأحس وهو في مكانه بروح تجول في المنطقة ، يكاد يتحقق من ذلك وإن كان لا يستطيع أن يبرهن عليه ، أحسها قد تجمعت من أرواح الأجداد ، وأنها تتحول كل مساء إلى طائر ، يبحث عن الموعود ، ليتقمصه ويفضي إليه بالسر .

عند هذا الحد صاح : لا حياة لنا بدون هذا الروح ، لماذا نتركه يهيم في المنطقة دون أن نقبض عليه ، هو طائرنا ، هو الذي سيبعثنا ، نحن لا شرق ولا غرب ، بل نحن هذا الطائر .

ولا يدري لماذا تذكر من جديد كتابه " الوسطية العربية " ، ولماذا استشعر صوت وليده الأول ، وهو يشهق مستقبلاً الحياة .

٣

أسرعت الأرض في دورانها ، تحولت إلى كرة صغيرة ، ألقيت في جوف الفضاء ، فتفجرت شظايا.

توقفت أنفاسه ، وتفصد عرقاً ، وأحس ببرد شديد .

نظر إلى أعلى ، فرآه طائراً يسد الأفق ، عرفه من الوهلة الأولى وكأن بينهما رباطاً يمتد آلاف السنين ، كانت نظرته أليفة ، ولكنها عميقة ، تهتك ظاهر الجسد ، وتستقر في القلب مباشرة .

كان يقف في وسط السماء ، جناح يملأ الشرق ، وآخر يملأ الغرب ، ورأسه تقف بينهما منتصبة في اعتدال ، وكأنها قائمة الميزان .

كان هناك خلق صفر وسود يستظلون بجناحه الشرقي ، وكان هناك خلق حمر وبيض يستظلون بجناحه الغربي ، وهو منتصب يوزع ظله كالقسطاس المستقيم .

كان دائماً ينظر إلى أعلى في ثبات وترفع ، لعله لم يتنبه إلى بعض الصغار في جناحه الغربي ، يتسلون بنزع ريشه الملون ، ويصنعون منه وسائد ومراوح ، كان لا يأبه لهم ، فقط هو مشغول بالنظر إلى أعلى ، لعله كان يبحث عن شيء غائر بين النجوم .

كانت أجنحته تتحرك حركة خفيفة غير ملموسة ، ولكنها كانت متتالية ومتواصلة وسريعة ، كان واضحاً أنه يبذل جهداً خارقاً لكي يحفظ توازنه ، ولكنه لم يكن يشكو فقط كان ينظر إلى أعلى نظرات غير محددة لا تأبه للصغار .

نظرت إليه فأحسست بكبريائه ، ودعوت له بالثبات .

٤

أخذ الطائر يملي والراوي يكتب ، كان يستل المعنى من الأرواح الهائمة بين النجوم البعيده ، ثم يلقيه إلى الراوي ، فيتفجر شظايا داخله ، كان الراوي يجمع تلك الشظايا ويحيلها إلى لغة مفهومة .

أحس الراوي بالمباهاة والتميز ، فقد تحول إلى وسيط تقمصته الأرواح الهائمة وكلفته بأن ينقل عنها ، كان الحرص يدفعه أحياناً إلى سرعة الأخذ عن الطائر فتضيع منه أشياء ، وتأتي العبارة في النهاية مبتورة .

ولكنه مع التكرار تعلم أن يضبط نفسه ، وأن يصبر على الواردات والتجليات ، وتذكر حينئذ مقام الجنيد رضي الله عنه ، فقد كان في أول أمره يرقص ويصيح ، ثم أصبح ساكناً ، ولما سئل عن ذلك ، تلا قوله تعالى **﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾** .

٥

برك ومستنقعات ، طين ووحل ، دخان وضباب ، اعجاز نخل منقعر ، كائنات حلزونية هلامية ، تداخل بعضها في بعض ، لا يبين منها رأس من ذنب .

ظهر رجل فتبدلت الطبيعة على التو . اصطفت الأشجار صفوفاً صفوفاً ، صفوف النخيل ، صفوف السدر ، صفوف الأثل ، صفوف السيسبان ، تحركت الكائنات وتميزت ، وأصبحت لها أسماء .

تواردت على لسانه آيات بدء الخليقة في سورة البقرة **﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون ، وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا﴾.**

وفهم السجود أكثر من معناه الظاهري ، إنه سجود لرمز العمل والتعمير ، الكون غفل وحين يظهر الإنسان على المسرح يصبح لكل شيء معنى ، وصاح لا وجود بدون الإنسان .

وتذكر قصة كان قد ترجمها لألان روب جرييه ، الكون يبدو فيها في حالته الأولى ، كل شيء مختلط ومتداخل وبلا معنى ، وفجأة يظهر إنسان وكأنه ضال تتسلط الشمس على عينيه ، فيبربش ويحجبها بيده ، ثم يولي الكون ظهره ويعود ، يتركه بلا معنى كما استلمه بلا معنى ، وأدرك لماذا

تنمو الفلسفات العبثية في الحضارة الأوروبية ، إنها لا تحترم الإنسان ، تساويه بجذع الشجرة وبقطعة الوحل .

وتذكر أيضاً مجموعة من طلبته في الجامعة ، كانوا يتدافعون ويتصايحون : الويل للكفرة ، الويل للزنادقة ، الويل لأهل الجاهلية ، وتبسم وأدرك : كم هم سذج ، إنهم لم يفهموا المعنى الحقيقي وراء أمر الله للملائكة بالسجود لآدم ، ولم يفهموا لماذا أذعن الملائكة أخيراً وبعد أن فهموا الحكمة الإلهية ، فسجدوا كلهم أجمعون ، إلا من أزاغه الله .

وكأن زراً قد أدير ، وإذا بآيات كثيرة تتوارد وكأنه يقرؤها للمرة الأولى ، آية من سورة الإسراء ﴿**ولقد كرمنا بني آدم**﴾ وثانية من سورة المؤمنون ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا** ﴾ وثالثة من سورة الإنسان ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدى**﴾ ، ورابعة من سورة التين ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** ﴾ .

عند هذا الحد سرت في جسده هزة ، كانت أكمام النخيل قد تفتحت ، وأطل منها شمروخ تفوح منه رائحة الحياة ، وانهمك جعران في حفر الروث ، وشرع إنسان تحت النخيل يذيب زبر الحديد ويفرغ عليه قطراً .

٦

أخذته سنة من النوم ، فرأى أبو العلاء يقف بين ورود صناعية ، بيضاء لامعة ولكنها فارغة ، وحوله مجموعة من السحرة يحركون ثعابين من فسيفساء وزئبق .

وكان ينشد داليته :

غير مجد في ملتي واعتقادي	نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعي إذا قيس	بصوت البشير في كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غنت	على فرع غصنها المياد

كانت في صوته حشرجة وقسوة ، وتسرب إلى إحساس بالعبث ، البكاء كالغناء ، والنذير كالبشير وأخيراً الإنسان كالتراب ، كان هذا الإحساس قوياً عارماً ، كاد يتحول إلى كابوس يأخذ بخناقي لولا أن أزحت الغطاء وصحت إنها قصيدة تخلو من الدفء .

وظللت مسهدا لم أنم وأخذت أتذكر .

كان أبو العلاء قد حرم على نفسه اللحم والطير واللبن ، كان لا يريد أن يؤثر نفسه بشيء تحتاجه الحيوانات ، كان يحبها أكثر من نفسه ، وكان أيضاً قد حرم على نفسه الزواج ، كان معادياً للحياة قست عليه فقسا عليها .

وتذكرت حين كنت في أوروبا ، كان الناس يحنون على الكلاب يربتون عليها ، يقدمون لها الحلوى ، والدواء والفراش ، كانوا يهدهدونها كأطفال ، ويناغونها كزهور .

ووجدت نفسي لا أرتاح لنغمة أبي العلاء ، ولا أتقبل حنو الأوروبيين على الكلاب ، إن هنا شيئاً مفقودا ، أبو العلاء لا يحب الحياة وإن كان يحب الحيوانات ، والأوروبي لا يحب جاره وإن كان يحنو على كلبه .

وتذكرت مسرحية كنت قد شاهدتها على المسرح القومي بلندن لا أذكر اسمها بالتحديد ، وكل ما أذكره أنها كانت عن هذا الجيل الذي شب خلال الحرب ، لقد فقد اليقين والحب ، وأخذ يعامل كل شيء بحياد وسطحية ، لا زلت أذكر تلك الممثلة الشابة ، ولا زلت أذكر جلستها وهي مرتخية بلا مبالاة ، لا يبدو في نظرتها شيء ، سوى أن ترضي غرورها كامرأة ، كل علاقة مع شاب تبدو سريعة ولا تعني شيئاً ، لا تفهم معنى الزواج ، ولا تفهم معنى الارتباط ، علاقتها مع أهلها لا تعني شيئاً ، كل شيء ينزلق تحت السطح سريعاً ، إنها تعيش كالقطة تجلس بجوار المدفأة ، تتمسح بصاحبها تلتمس ربتة حنان ، ثم تنام دون أحلام أو مستقبل .

وتذكرت بطل سارتر في روايته " الغثيان " كان يسخر من الاستقرار والنظام ، كان يضيق بسكان مدينته من الأسر البورجوازية ، يذهبون إلى أعمالهم ، ويركبون السيارات ، ويصاحبون الزوجات ، ويداعبون الأطفال ، وتساءل روكانتان بطل تلك الرواية ، ماذا يحدث لو أن هؤلاء قاموا في الصباح يفتحون الصنابير ، فإذا بهم يجدون الدماء تتدفق بدلاً من المياه ، كان يتساءل ، عن ذلك وفي نبرته رغبة في أن تنقلب البيوت ، وتتحطم الصنابير ، ويموت البورجوازيون . وكان سارتر يرى بذلك أنه يبشر بفلسفة جديدة ، لا تستقر به إلى شيء ولا تهدأ إلى يقين ، كان يصف جيله بأنهم " مبحرون على ظهر سفينة " .

وكنا مجموعة من الشباب ، نجلس كل مساء على مقهى ريش ، كنا لا نزال نلوك أحداث ١٩٦٧ وكان حديثنا المفضل هو العبث ، تتنفس

العبث ، ونبشر بالعبث ، ونكتب عن العبث ، ونحتفي بالعبث ، ونرى ذلك فلسفة جديدة ، ودلالة العصرية والتمرد .

وأذكر وقتها أنني رحت أترجم لكافكا ومارسيل بروست واتيالو سفيفو وآلان روب جرييه ، وأقدم كل ذلك في كتاب تحت عنوان " الأدب وتجربة العبث " وكأنني أقدم سفر الخلود .

ولم يخطر ببال أحد منا وقت ذلك أن عبث ما بين الحربين كانت له ظروفه ، وأن عبث ما بعد ١٩٦٧ له ظروفه أيضاً ، وأن ما نسميه فلسفة قد يكون ظاهرة مرضية ، وأن ما نسميه تمرداً قد يكون تشنجاً ، وأن ما نسميه عصرية قد يكون نزوة .

عند هذا الحد صحت : كل شيء لا يصدر عن حب الإنسان ، فإن مآله إلى الزوال ، حتى وإن تزيى بأرقى الفلسفات .

أخذت سعفها تتراقص في أجواز الفضاء كأنها صلوات المتصوفة ، والقمر يلقي وراءها غلالة بيضاء كالحليب المسكوب ، وظلها يفترش الرمل الفضي ، ويتخلل حبيباته ، ويمتزج الأبيض مع الأسود ، كما يمتزج الخير والشر ، والحياة والموت .

جلس إلى جذع النخلة يحادث نفسه ، إنه يحمل في يده ساعة اليكترونية ؛ وفي جيبه جهاز تسجيل يديره ، فيسمع آلاف النغمات من مختلف الأوركسترات ، وهناك في السيارة التي تركها بعيداً جهاز تليفزيون ، يحركه فيشاهد أنواع الرقص ومختلف الحركات ، ولكن كل ذلك يتضاءل أمام تلك اللحظة وهو يستند إلى جذع النخلة ، إن رقصات ساقها في السماء تفوق رقصات بحيرة البجع ، وإن وشوشة سعفها في الفضاء تفوق غناء الكورال في السيمفونية التاسعة ، وإن اللوحة التجريدية التي رسمها ظلها فوق الرمال تفوق لوحات بيكاسو وسلفادور دالي . لقد سمع الكثير في حياته ، وشاهد ، وقرأ ، وحرب ، وسافر ، ولكن كل هذا يضيع في غمار تلك اللحظة الأثيرية ، إنه يحس بوشيجة ما مع هذا النبات الذي يضرب في أغوار التربة ، وتذكر قول الرسول ﷺ : " نعمت العمة لكم النخلة " . إنه يحس الآن أن هذاالحديث شيء فوق المجاز والبيان ، إنه يعبر عن صلة حقيقية مع هذا النبات أقوى من صلة الرحم ، إنها صلة تفوق الرسم والرقص والغناء وسائر ما تهيئة الأجهزة الحديثة ، وتساءل : هل الإنسان هو تلك الأشياء التي يعايشها في حياته ، يلبسها ، يأكلها ، يشربها ، يستخدمها . قد يكون ذلك كذلك ، ولكن هناك أشياء أخرى غير مرئية ، وتفعل فعلها أكثر مما تفعله حياته اليومية ، إن النخلة بالنسبة له

ليست نباتاً وظلاً ومتكأً وتمراً ، إنها أشياء غير مرئية ، إنها تاريخ ، يذكر يوم أن لجأت إليها مريم تبتغي الستر والعون ، ويوم أن لجأ إلى ظلها موسى يبتغي الفرج ، ويذكر عشرات الحكايات التي قرأها في كتب الجاحظ وأبي علي القالي وأبي الفرج الأصفهاني ، عن هؤلاء الذين يتوهون في الصحراء ، ثم تبرز لهم من بعيد نخلة تمدهم بالظل والتمر ، وتمسك عليهم الحياة .

وأمعن في التساؤل وتذكر حديثاً آخر للرسول ﷺ ، يجعل النخلة هي مثال المسلم ، إنه لا ينطق عن الهوى ولا يكتفي بمجرد ضرب المثل ، بل لعله يعني شيئاً أبعد من ذلك ، لعله يعني أنها رمز المسلم ، أو قل هي "تراث" المسلم .

عدل الرجل من جلسته ، وسرح الطرف مع السعف التي تتراقص ، وأخذ يتساءل ولكن ما هو التراث ، إن الكلمة قد أصبحت ككرة اللبان ، يمضغها كل كاتب وصحفي حتى فقدت قوامها ، وأصبح التعرف على هويتها شيئاً صعب المنال ، هل التراث هو ذلك الشيء الذي نجده في بطون الكتب وأروقة المساجد ، إن الكتب والمتاحف والخزائن هي مجرد "دالات" على التراث وحافظات له أما التراث فهو شيء غير مرئي ، نتنفسه كالهواء ويتخللنا كالدماء ، إنه يذكر حين زار الأماكن المقدسة لأول مرة ، كان يتوق لرؤية جبل أحد ، ومسجد قباء ، وعرفات ومنى ، وزمزم ، إنها تعني أشياء كثيرة بالنسبة له ، يذكر في طفولته أن أقاربه كانوا يقولون له أيام العيد " على منى " ، وحين يتوضأ يقولون له " من زمزم " ، وحين يصلي يقولون له " حرماً " ، وحين زار تلك الأماكن التي كانت تعشش داخله ، لم يشاهد جبالاً شاهقة ، ولا أماكن مرتفعة ، ولكنه أخذ يتنسم الذكرى

في كل مكان ، وأصبح الهواء في مكة والمدينة وعرفات ومنى مشبعاً بأنفاس الصحابة والتابعين ، إنه تراث يتنفسه في الهواء ويتخلله حتى الدماء ، ليس حتماً أن يكون التراث أهرامات أو عجائب سبعاً ، قد يكون شيئاً أثيرياً تجريدياً ينتقل من الآباء والأحفاد عبر النطف والأصلاب ، إنه لا يعرف كم هو عمر تلك النخلة ولكنه يعرف أنها مثل الالآف ، تنتشر في المنطقة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، إنها ليست تفاحاً ولا برقوقاً ، ولكنها شيء فوق التفاح والبرقوق ، إنها بالنسبة له عمته ومثاله ورمزه .

وجاءه أبوه في منامه وشق صدره ، وانتزع علقة سوداء وألقاها بعيداً ، فاستيقظ خفيفاً وقد أذن القمر بالمغيب ، وخرجت القرضة والأرضة والفيران من محاجرها ، وانخرط يصلي ركعتي الصبح دون وطاء أو غطاء ، إنه لم يعد يخشى الهوام ولا الدواب ، الكل أصدقاؤه يعرف لغتهم ، ويسبح معهم لخالق السموات والأرض .

٨

هبت زوبعة في الصحراء ، حملت معها الغبار والتراب ، تطوحت النخلة وكادت تقتلع لولا جذورها الغائرة ، غاب القمر ، وعاثت الهوام ، وأصبحت الصحراء جحيماً لا يطاق .

أفاق الرجل من تأملاته ، دعك عينيه ، كان القمر بالأمس وردياً ، والنسيم عليلاً ، وكانت الذكريات جميلة عن التراث الذي يستنشقه في الهواء ، أما اليوم فقد تغير كل شيء ، إن دوام الحال من المحال ، وكل يوم هو في شأن ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، وتواردت عليه ذكريات من نوع جديد .

هل كل ما يحمله الهواء صالح للحياة ، وهل كل ما في التراث ينبغي أن يستنشقه الإنسان ؟

كان قد قرأ في كتب التاريخ عن حركات الزنادقة التي تكيد للإسلام باسم الإسلام ، وكان قد عرف أن الكثير من المذاهب الغريبة والوافدة قد تسربت إلى المسلمين وتزيت بزي الدين ، وكان يدرك أن كل ذلك قد تناهى إلى العامة ، فحسبوه من الدين ، واختلط في وجدانهم الزيف بالصحيح . وفهم أن هذا التراث الذي اختلط بعضه ببعض قد وقع تحت أيدي المستشرقين ، فحسبوه كله من الإسلام ، لم يريدوا أن ينقوه ، أو لم يستطيعوا ذلك حتى إن أرادوا ، كانوا قد تقولبوا بتلك القوالب التي تتخذ من وصف الظاهرة الخارجية منهجاً ، يحكمون من خلاله على الواقع ، دون أن ينقوا الزيف من الحقيقي والعرض من الجوهر ، إنه يذكر مثلاً ما قرأه لشبنجلر عن الحضارة الإسلامية إنه يصفها بأنها حضارة السحر ، التي تؤمن بالأرواح والجنيات ، وتعتقد في قوة السحر وخوارق العادات .

كان بالأمس قد أدرك أن كلمة " التراث " قد لاكتها الألسن ، حتى فقدت قوامها ، وأصبحت شيئاً هلامياً يصعب تحديده ، واليوم يدرك أن هذه الكلمة قد تعرضت لتداخلات كثيرة ، اختلط فيها الحابل بالنابل .

إن الأمر إذن يحتاج إلى بصيرة نافذة ، تخترق الحجب ، وتبين الأصيل من الدخيل .

إنه يذكر أن مُشركي قريش كانوا يتمسكون بسنة آبائهم ويزعمون أن هذا هو تراثهم الحقيقي ويذكر أن محمداً ﷺ قد استطاع أن يخترق الحجب وأن يكتشف زيف ما يصنعون ، لقد أدرك بنفاذ بصيرته أن التراث الحقيقي للمنطقة قدحجب ، وسمي مشركي قريش بالكفار ، وهي كلمة مشتقة من الكفر بمعنى الستر والتغطية ، إنهم قد حجبوا التراث الحقيقي بالعادات والتقاليد وغطوا الفطرة بالزيف ، وأدرك ﷺ أن التراث الحقيقي لأمته إنما يتمثل في الوحدانية ، وأن هذا التراث يضرب بجذوره إلى إبراهيم عليه السلام ، وقد حمله بعده إلى الجزيرة العربية ابنه اسماعيل ، وتلقاه منه الحنفاء ، الذين كانوا يتوارون وراء البيوت والدور ، يخشون قريشاً ، ويكتفون بالعزلة والتنسك ، أدرك ﷺ أن تراث إبراهيم موجود في الأعماق ، فقط عليه أن يزيح الشوائب والأستار ، فسوف يتألق دين إبراهيم من جديد .

ولكن محمداً ﷺ قد لحق بالرفيق الأعلى ، بعد أن أعلن في حسم أنه خاتم النبيين ، وأن الوحي قد انقطع بموته ، فمن ذا الذي يحمل الأمانة من بعده ، ويتصدى للتمييز بين الزيف والصحيح ، وتذكر تفسيراً لإقبال ، كان قد استراح إليه حين قرأه في كتابه " تجديد التفكير الديني " وأن مبدأ ختم النبوة ، فيما يذكر اقبال ، يعني انتهاء عصر الوحي والمعجزات ، وبداية عصر العقل وربط الأسباب بالمسببات ، لقد توقف الوحي بعد أن

أرسى المبادئ ، وكان توقفه استنفاراً للعقل لكي يواصل المسيرة على هدى تلك المبادئ ، وتذكر حينئذ قول النبي ﷺ "العلماء ورثة الأنبياء" ، وأدرك بوضوح وظيفة العلماء في الحضارة الإسلامية ، إنها لا تكتفي بمجرد اجترار المعلومات ، واختزان الذكريات ، إنها امتداد لوظيفة الأنبياء بعد انقطاع الوحي ، لا يهدءون ولا ينافقون ، يدخلون المعركة تلو المعركة ، حتى يستطيعوا أن يزيلوا الحجب والأستار الكثيفة ، وحتى يبرز الوجه الحقيقي للتراث ، نافضاً عنه التراب ، متطلعاً نحو الشرق .

وهدأت العاصفة في الخارج ، وهبت نسائم الشمال باردة فاترة ، وبدأت النخلة تعيد اتزانها من جديد ، وأخذت سعفها تتراقص في الفضاء.

٩

كانت الرياح محملة بحبوب اللقاح ، وزهور الحناء تبدو صفراء ناعمة تنبعث منها رائحة مغرية ، وكانت هناك نحلة تحوم حول تلك الزهور ، وتمتص رحيقها في نهم ، وتحيله إلى عصارة جديدة ، وانبعث منها طنين متواصل ، يبعث النشاط ويحث على الحركة .

كان قد استراح تماماً لفكرة اقبال عن خاتم النبوة ، وأدرك أنها دعوة للعلماء ، لكي يواصلوا الطريق ، ويحملوا رسالة الأنبياء ، وتذكر من جديد الحديث الشريف " العلماء ورثة الأنبياء " ، وأحس بالمسئولية كما لم يحسها من قبل ، كان الرسول ﷺ يؤنسه الوحي ، ويمده بالمشورة كلما حزبه أمر ، أما العلماء فعليهم أن يواصلوا الطريق دون وحي ، ولم يدر لماذا أخذ يتلو الآية الكريمة **﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾** ، وأحس بالإشفاق ، ولكنه في الوقت نفسه أحس بأن على الإنسان أن يعي قدره ، فتلك هي الخطوة الحقيقية لمواصلة الطريق .

وعاود التفكير من جديد في قضية السحر ، وهبط عليه شيء كأنه الوحي ، وإذا به يدرك أن قضية السحر في الحضارة الإسلامية ، تدل على سعة أفق تلك الحضارة واستعدادها لتقبل الطارىء والجديد ، إنها تريد أن تخلص العقل من أسر القوالب العقلية التي يؤمن بها إيماناً مطلقاً فيألفها ويقع في وهمها ويستريح إلى الكسل ، ويصاب بالجمود ، إن المقولات العقليه تبدو مطلقة وغير قابلة للاعتراض ، وإذا حدث حوار حولها في فترة ما ، واجهه أصحاب العقل بالنفور ، إن فكرة الإيمان بخرق العادة تحت أي مسمى في الحضارة الإسلامية ، تعني تخليص العقل من وهم العادة ، إنها تريد أن تحوله إلى آلة حادة ، تلتقط الغريب ، وتقبل الخارق ، إنها بذلك تقف مع التطور ولا تقف ضد التطور .

وفهم لماذا لم يؤمن المعتزلة بالسحر ، بينما آمن به أهل السنة ، إن المعتزلة يمثلون أصحاب المقولات العقلية ، يجمدون عند تلك المقولات ، ويحاربون كل من يشك فيها ، أما أهل السنة فهم يفتحون الباب أمام احتمالات جديدة ، وإمكانات المستقبل ، وافترض لو أن المعتزلة ووجهوا بإمكانية الكثير من المخترعات الحديثة ، لعارضوا ذلك بشدة فهي أشياء غير معقولة ، تخرق العادة ، وتخالف المألوف ، أما أهل السنة فقد يقولون باحتمال ذلك ، فكل شيء بأمر الله ، الذي يستطيع أن يوجد الأسباب بدون مسببات ، وأن يجمع بين المتناقضات متى ما أراد .

حينئذ أدرك الأمور بوضوح ، فقضية السحر في الحضارة الإسلامية ليست قضية إيمان بالأرواح والجنيات ، إنها قضية المؤمن المستنير ، الذي يريد أن يدع العقل في حالة استنفار ، لتقبل الغرائب والمخترعات والجديد .

وأخذ يقرأ آيات السحر في القرآن الكريم من جديد ، إنها لا تحمل ثقافة الإنسان الأول ، الذي يخشى الظواهر الطبيعية ، ويفترض فيها قوى خفية ، ولكنها تحمل قوة الإنسان المسلم ، الذي يواجه الواقع ، ويوجهه لمصلحته ، فالسحر موجود ولكن السحرة لا يستطيعون أن يضروا أحداً إلا بإذن الله **﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾** ، والسحر يعتقد به الناس ، ولكنه في نظر القرآن يمثل الزيف والخداع ، الذي لا يستطيع أن يصمد أمام الحقيقة والنور ، إن السحرة لم يستطيعوا أن يقفوا أمام عصا موسى فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين .

وظل يفكر ويفكر ، ويفصل بين أمر وأمر ، حتى لاح خلف النخلة عمود من نور ، كان النور قوياً وملحاً ، أخذ يطارد غبش الفجر الكاذب ، وتناهى إليه من بعيد صوت ديك يهلل للنور الجديد ، فحمد الله وقام يغتسل للصلاة .

ردد بالأمس دون أن يشعر قول الله تعالى ﴿ **ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ ، كان المقام عصيباً ، الرياح تهب ، الغبار يدمي العيون ، النخلة تفقد توازنها وتكاد تلتصق بالأرض ، فأخذ لسانه دون أن يشعر يردد هذه الآية الكريمة .

وواتته فكرة لمعت داخله كالشرر المتطاير ، لقد وجد نفسه وقت الأزمة يبحث عن شيء ثابت يتعلق به ، شيء يلعب دور خشبة الانقاذ ، فيحميه من الضياع والغرق ، وتوالت الأفكار ، وأدرك أن التراث يمثل "الثوابت" التي تحمي الأمة من الضياع ، وأدرك لماذا يزداد التشبث بالتراث وقت الأزمات .

وراقته فكرة الثوابت وأمعن فيها النظر ، وجدها تحمل خصوصية الحضارة ، فبدون ثوابت تصبح الحضارة شيئاً هلامياً لا معنى له ، الحضارة ، أية حضارة ، لا تستحق هذا الاسم إلا إذا كانت تحمل في داخلها بعض " الجينات " التي تميزها ، وتعطيها طابعاً خاصاً يظهر في أفكارها وفنها وموقفها من الحياة والكون .

وأدرك أن الثوابت في الوقت نفسه دعوة مفتوحة وتغري بالاجتهاد ، هناك ثوابت هذا حق ومطلوب ، وهناك اجتهاد فيما وراء الثوابت ، هناك قدر يمثل " القالب " الذي تقدمه الحضارة ، وهناك قدر آخر يصنعه الأفراد لتشكيل هذا القالب ، وتذكر حينئذ رأياً لإقبال كان قد ذكره في كتابه "جاويد نامه" ، إنه يرى أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، لا لأنه يقدم قوالب مطلقة وعامة ، بل لأنه يقدم قوالب متطورة ، تخضع للاجتهاد ، ولا تتعارض مع فطرة الإنسان ، وتبقى ما بقي التركيب البشري ، الذي يحمل في داخله الخير والشر معاً .

وتواردت عليه الأفكار ، إن فكرة الثوابت بهذا المعنى المزدوج ، الذي يحمل القالب وتشكيله ، يحمل الخصوصية والتغيير ، يحمل القاعدة والاجتهاد ، إن هذه الفكرة تضرب بجذور عميقة في الثقافة الإسلامية ، تذكر أن علماء التفسير يذكرون أن القرآن الكريم قد جاء عاماً يحتاج إلى تخصيص ، ومطلقاً يحتاج إلى تقييد ، وتذكر أن علماء السنة يقسمونها إلى سنة تشريعية تهدف إلى تقديم الحكم الشرعي ، وإلى سنة غير تشريعية جاءت من باب الأمور الدنيوية ، وأن الرسول ﷺ حينما قال لأصحابه في قصة تأبير النخل " أنتم أعلم بأمور دنياكم " ، إنما كان يوجههم إلى الاجتهاد في غير الأمور التشريعية ، وتذكر أن علماء الأصول يتحدثون عن أحكام قطعية لا تقبل الاجتهاد ، وأحكام وراء ذلك تستجيب للاجتهاد .

أخذت النخلة تتمايل بشدة ، وتتطوح يميناً وشمالاً ، ولكنه كان مطمئناً ، لا يخشى عليها أن تقتلع فقد قرأ في القرآن الكريم أن أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وعرف من العلماء أن جذورها تغوص في التربة أكثر من متر ونصف بحثاً عن الماء .

١١

كانت الجبال حوله كالحة ، وعلى ربـوة قريبـة ربض ريم لا يتحـرك ، وفجأة انطلق نحو الريم نصل سهم فأرداه قتيلاً ، لم يعرف مصدره ، ولكنه لم يعجب له ، فقد كان يتوقعه ، ثارت الرياح ولطمت وجهه .

تذكر أبياتاً كثيرة من الشعر الجاهلي ، كلها تتـوارد حـول هـذا المعنـى ، شيء كالسهم أو كـالقدر الأعمـى ، ينطلـق نحـو حيـوان أو إنسـان غـافل فيرديه قتيلاً ، يموت الحيوان كالكلب دون أن يفقه شيئاً ، يقول ذلك امـرؤ القيس عن هذا القطيـع الـذي يبـدو آمنـاً كعـذارى دوار ، وفجـأة يداهمـه الصائد فينتشر كالعقد الممزق ، ويقوله لبيد عن البقرة الوحشية التي تبحـث عن ابنها وفجأة يروعها رز الأنيس عن ظهر غيـب ، ويقولـه الحـارث بـن حلزة عن النعامة التي يفزعها القناص عصراً وقد دنا الامساء .

وبدا له أنه يفهم صورة السيل عند امرىء القيس وغيره من شعراء العصر الجاهلي بطريقة أخرى ، إنه ليس صورة لسيل عادي ، وليس وصفاً تقريرياً لطبيعة هائجة ، بل يكاد يكون رمزاً لقدر أعمى باطش ، يتحرك في طريقـه دون غاية ، يقتلع الأشجار ، ويدحرج الأحجار ، ويلطم الوجوه .

واستحضر أيضاً دون أن يتوقع نهاية رواية كان قد قرأها منذ مدة طويلـة لكافكا ، لعلها رواية "القضية" التي تنتهـي في جـو غـامض ، ريـح عابثـة ، وأضواء غامضة ، والنوافذ تصطفق ، وفجأة يندفع سهم نحو البطل ، فيرديه قتيلاً وهو يصيح كالكلب .

وتساءل إذا كان ليل الجاهلية يحمل في تضاعيفه تباشير صبـاح جديـد ، فهل يحمل ليل كافكا وغيره من كتاب العبث إرهاصا بفجر جديد ، أو أن الليل لا يزال طويلاً .

عندئذ نعق صوت غراب فوق النخلة ، وهبت ريح عاتية ، وتسللت إلى عينه قشة حادة ، فأصابتها بالاحمرار وجعلته يفور .

١٢

كانت هناك حمامة بيضاء تتجه نحو المشرق ، كانت تعرف طريقها لا تلتفت يمنة ولا يسرة ، وارتفع صوت المؤذن " الله أكبر " ، وتناهى إلى سمعه صوت الآلاف من جند الله ، يضعون السيوف ، ويريقون المياه على أيديهم وأرجلهم ، استعداداً للصلاة ، كان خرير المياه يختلط مع قعقعة السيوف ، فيشكلان موسيقى صافية ، تترامى في أحواز الصحراء الفسيحة الممتدة .

وصاح حقاً إنها معجزة ، وتذكر السهم الغامض ، ورثى لتلك النعامة المسكينة التي جاءها قدرها من حيث لا تحتسب ، وأنشد من جديد أشعار امرىء القيس ولبيد وابن حلزة ، وتنهد : مساكين هؤلاء ، لقد عاشوا وماتوا كالكلاب الضالة ، كانوا ضحية قدر باطش لم يفهموه ولم يتجاوزوه .

واستحضر صورة الفرسان في العصر الجاهلي ، حقاً كانوا شجعان وأقوياء ، يواجهون الخطر ، يدخلون في معارك مع الطبيعة ، وينتصرون على الوحش وحيوانات الصحراء ، ويفتخرون أمام الحبيبة ببطولاتهم وفروسيتهم ، ولكنهم افتقدوا الغاية ، كان السهم الغامض يهددهم ، فوقعوا فريسة الخمر والنساء ، وتحرك لسانه بشعر لطرفة .

فلولا ثلاث هن من حاجة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي

أتلك هي غاية الحياة عند طرفة وأمثاله من فرسان العصر الجاهلي ، أن يعيش من أجل الخمر والقتال والنساء .

وصاح من جديد : حقاً إنها معجزة ، كان لا يزال صوت المؤذن وخرير المياه وقعقعة السيوف تتناثر في رحبات الصحراء الممتدة ، لقد تبدل كل

شيء ، واختفى السهم الغامض ، وعرف الفرسان طريقهم ، إنهم ينطلقون في مشارق الأرض ومغاربها ، ليس بحثاً عن نعامة شاردة ، وليس حباً في أن يفخروا ببطولاتهم أمام الحبيبة ، ولكنهم انطلقوا وراء " الله أكبر " يرددونها في كل مكان ، لقد أصبح لهم هدف وغاية ، حقاً هم يؤمنون بالقدر ، ولكنه ليس قدراً أعمى كالسهم الطائش ، إنه قدر منضبط ، محكوم بسنة الله التي لا تتبدل ، حقاً قد تخفي حكمة تلك السنة على بعض العقول القاصرة ، ولكنها أبداً لن تكون طائشة ، وتفهم حسرة رستم حين وجد المسلمين يصطفون للصلاة ، فصاح " أكل عمر كبدي إنما يعلم الكلاب الآداب " ، لقد أدرك هذا القائد موطن القوة ، وعرف أن عصر الضبط والربط قد بدأ .

وتحرك لسانه دون أن يشعر بآيات من القرآن الكريم ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا** ﴾ .

وأدرك المغزى الحقيقي وراء هذه الآيات ، إنها لا تقلل من قيمة الشعر والفن كما فهم بعض السذج ، بل إنها تقف ضد نوع من الفن المتخاذل ، يجدف في كل واد ، ولا يلتزم بالقيم الإنسانية ، ولا يدافع عن مضمون الكلمة ، أما ما عدا ذلك فإن سورة الشعراء تستثني الفن الملتزم الذي يتعانق فيه القول والفعل ، ويناضل فيه الإنسان من أجل قضيته .

ولم يطل به التفكير كثيراً هذه المرة ، إنه لم يعد يستعذب الجلسات الطويلة ، يقلب فيها الأفكار ، يفككها ثم يركبها ، وتساقطت عليه من النخلة ثمرة شهية ، فالتقطها ونهض يسعى في الأرض .

١٣

رأى قرية من بعيد ، تقف على قمة جبل متطرف ، كأنها معلقة بين السماء والأرض .

كانت هناك أشجار غريبة تحيط بالقرية ، تصدر منها رائحة مثملة ، وعليها فاكهة ناعمة الملمس ، كانت هناك بضع نحلات تطن طنيناً يخدر الأعصاب ، ومجموعة من الحمائم تسكن فوق الأغصان ، وتستحم في أشعة الشمس الدافئة ، وتخفي رءوسها بين الزغب الناعم في لذة سرمدية .

وهناك رهط يستحمون في برك حول الأشجار ، عرايا يشربون حتى الثمالة ويتبادلون الحديث حول النساء والطعام وأوز البحيرة ، لا يبالون بشيء سوى أن يستحموا في البرك ، ثم يتحادثون ، ويتحادثون .

تفرس فيهم فعرف أنهم شياطين الشعر ، وأدرك أنه في قرية من قرى الجان التي تنتشر فوق أطراف الجبال .

تعرف من بينهم على فتى جميل ممتشق القوام ، يلبس الألوان الزاهية ، ويضع فوق رأسه قلنسوة مزينة بريش الطيور ، كان يمضغ لبانة ، ويعب من كأس ويصيح " اليوم خمر وغداً أمر " فعرف في الحال أنه شيطان امرىء القيس .

تذكر مشهداً كان قد قرأه في مسرحية " مجنون ليلى " لأحمد شوقي ، تحدى شيطان قيس صاحبه إن كان يستطيع أن ينطق الشعر دون مساعدته ، لم يستطع الشاعر ، وتحول إلى عُيي يكاد لا يبين .

عند هذا الحد صاح : مساكين هؤلاء الشعراء ، لا يصدرون عن أنفسهم ، هم خدم للشياطين والجان ، يلقون إليهم زخرف القول غروراً .

وأدرك أن شعراء الجاهلية قد فقدوا اليقين الداخلي ، يصغون لشياطين

الشعر ، يهيمون وراءهم في كل واد ، يقولون مالا يفعلون أوما الشياطين عليهم يملون . .

وعرف السبب الذي جعل جنة أبي العلاء تخلو من الشعراء ، كانوا يأتون حارس الجنة ، وينشدونه شعر المديح لكي يسمح لهم بالدخول ، فيأبى عليهم ذلك لأن جنة الآخرة لمن يستحقها ، لمن يحيل القول إلى عمل ، والكلمة إلى رصيد ، ولحظة الإبداع إلى حياة .

وأدرك أن الفن بلا عمل هو نوع من الخداع ، وأن الشعر بلا يقين هو من وحي الشياطين .

كان قد تحادث مرة مع صديقه عن السحر ، وأنه زيف لا يقف أمام عصى موسى ، واليوم يعرف أن الشعر إذا خلا من اليقين إنما هو نوع من السحر ، ولا يدري لماذا تذكر الحديث الشريف " إن من البيان لسحرا " ، ولماذا يحس إزاءه بمعنى جديد لم يخطر له من قبل .

وأدرك تماماً مأساة الواقع العربي ، إنه يعيش في سحر الكلمة ، أزفت الآزفة ، واحتلت فلسطين ، وهدم المسجد الأقصى ، وعاثت في الأرض القردة والخنازير ، ولا شيء سوى الشعر ، وكأنه المادة المخدرة يتسلى بها عن الحقيقة ، ويتحصن بها ضد الواقع .

تمنى لو خلت مدينته من هؤلاء الشعراء ، تمنى لو رأى مدينته فاضلة مثل مدينة أفلاطون ، طرد منها الشعراء ، أو جعلهم يعيشون في زاوية قصية .

عند هذا الحد رأى شهاباً رصداً ، ينقض على قرية الجان فيحرقها ، ورأى الشعراء يتطايرون من كل جانب .

تمنى في سريرته شهاباً كهذا ، أو قل عاصفة ، تنقض على قرى الجان ، التي تنتشر الآن في أرجاء العالم العربي .

١٤

هبت نيران عاتية ، التهمت كل قرى الجان ، وانطلقت الشياطين إلى كل جانب ، وذيولها تشتعل بالنيران .

في غار حراء هبط جبريل إلى الأمين ، وغطه إلى صدره ثم أرسله ، وأمره أن يقرأ باسم ربه .

تجلت الحقيقة ، وتكشف السحر ، وتخرصت الألسن ، واختفت الشياطين .

توحدت الكلمة والفعل ، وحدثت المعجزة ، وتحول كل مسلم إلى شاعر يقول ويفعل ، يعيش لحظة الإبداع ثم لا يتركها وراءه ظهريا ، بل يظل يصنع قصيدة في كل لحظة من لحظات حياته .

أدرك حينئذ أن الفن إذا التحم باليقين تحول إلى رسالة .

وسمع صرير أبواب الجنة تفتح لهؤلاء الشعراء ، وأحس أن مدينة فاضلة قد أخذت تتحقق .

١٥

لم تعد الجبال أمام عينيه كالحة متجهمة ، لقد تبدلت ، كان صوت الشيخ محمد رفعت يتردد في جنباتها وهو يتلو ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله** ﴾ ، لم يكن صوتاً بشرياً ، بل كان صوتاً ملائكياً يذيب الأحجار ، يجعلها تتشقق ، وتتفجر بالمياه ، وتهبط من خشية الله ، يحرك الجبال الجامدة ويجعلها تمر مر السحاب ، وتذكر وقت أن تجلى الله على الجبل ، وخر موسى صعقاً .

وأدرك بوضوح معجزة القرآن الكريم ، إنه لم يقف عند المظهر الخارجي للصحراء ، الجبال الكالحة ، والرمال الساخنة ، والسحن المغبرة ، لقد أدرك الوجه الآخر للصحراء : نسيم الصبا ، خشوع الجبال ، تسبيح الوحوش ، رائحة النبات .

وأخذ يتلو القرآن الكريم ، ونزل على قلبه برداً وسلاماً ، وفاضت عينه بالدمع ، وتواردت على لسانه آيات من سور مختلفة ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ ، ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ ، ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق** ﴾ ، ﴿**ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته**﴾ .

وأحس بشعور لا يستطيع وصفه بالضبط ، لقد كان بالأمس مهتاجاً تسللت إلى عينه قشة حادة ، فأصابتها بالاحمرار وجعلته يفور ، والآن وعقب قراءته لهذه الآيات فإن قلبه مفعم بالرضا ، لعله شفاء الصدور الذي يتحدث عنه القرآن الكريم ، وتذكر كلاماً كان قد قرأه لابن الجوزية عن السكينة ، وأنها تنزل وقت الشدة والمحنة ، فقال لعلها السكينة أيضاً .

وأدرك أنه شيء لا يستطاع تحديده ، يند عن الاسم والتعريف ، ولكن يحس به كل قارىء للقرآن الكريم ، حتى لو لم يفهم معناه ، إنه يحس بهذا الشيء يتسلل إلى قلبه ، فيدرك أنه إزاء كلام لا يتكون من لغة وحروف مرصوصة ، بل من شيء كالماء أو الروح يسري خلال تلك اللغة والحروف ، وتذكر كلاماً كان قد قرأه لمسيلمة الكذاب يقول فيه " ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاف وحشى " ، إن الرجل يجتهد وسعه في أن يجاري القرآن الكريم ، نفس اللغة والحروف والمعاني والفواصل وتقسيم الجملة ، ولكنها تبدو خالية من الروح تثير السخرية والضحك ، ينقصها ذلك الشيء الذي لا يستطيع أن يضع له اسما ، وتذكر تعليقاً لابي بكر الصديق حين سمع كلام مسيلمة "ويحكم إن هذا لا يصدر عن آل" ، وصاح : لقد وجدت الاسم ، إنها روح القدس التي افتقدها أبو بكر رضي الله عنه في هذا الكلام ، وعرف لماذا أطلق الناس على مسيلمة صفة الكذاب .

وهبطت على عينه حبيبات من برد ، كأنها المن والسلوى ، فأزالت احمرارها ، ونظر نحو هلال جديد ، يبزغ في الأفق القريب ، ففاضت نفسه باليقين .

١٦

كان هناك هدهد ينقب في الأرض ، بدت خطوطه الحمراء والبيضاء زاهيةً لامعة ، وتفتحت أكمام النخلة ، وبدا منها بسر أحمر وأصفر ، يختلط باللون الأخضر .

وتفتحت نفسه بالبهجة والجمال ، وتوالت على خواطره آيات من القرآن الكريم ، تظهر الطبيعة وكأنها في مهرجان ، فالسماء مرصعة بالكواكب زينة للناظرين ، والأرض فيها من كل زوج بهيج ، وأخذ يتلو ﴿ **ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين** ﴾ ﴿ **إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب** ﴾ ﴿ **ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح** ﴾ ﴿ **وهو الذي أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه** ﴾ ﴿**والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد**﴾ ﴿ **حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت** ﴾ ﴿ **فأنبتنا به حدائق ذات بهجة** ﴾ .

لم يعد يرى السماء رصاصية ثقيلة خرساء ، كما كان يقرأ في الروايات المصرية والمترجمة ، بل أصبح يطالع فيها دنيا بهيجة ، مزينة بالكواكب والمصابيح ، أصبح يراها وردة كالدهان ، تلتمع بمختلف الألوان .

وتذكر كلاماً لجيته أورده في ديوانه الشرقي عن القرآن الكريم :

رأيت بدهشة وابتهاج

ريشة طاووس بين صفحات القرآن

مرحباً بك في هذا المكان المقدس

أغلى كنز بين بدائع الأرض

وأخذ يكمل قصيدة جيته التي تتحدث عن صور البهجة في القرآن الكريم ، وتمتم : قد يدرك الغريب ما لا يدركه القريب ، فالألفة حجاب قد تحول دون كشف الأسرار ، إلا من هداه الله .

وجاشت نفسه ، وأخذ يتلو سورة الرحمن ، يتنقل بين اللؤلؤ والمرجان ، والنخل ذات الأكمام والحب ذي العصف والريحان ، والحور الحسان ، والوردة التي كالدهان ، وجنى الجنتين دان ، وأخذ يهز الرأس كلما يكرر ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

وواصل القراءة ، أصبحت الآيات في نهاية السورة تتحدث عن الجنات ، آيات قصيرة ، وفواصل سريعة ، وأخذت التكرارات تتوالى ، والايقاع يرتفع ، والانفاس تلهث ، والرءوس تهتز ، ويروح ويجيء ، وهو يردد بلا انقطاع ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ ، ومازال يردد ويكرر حتى غامت الرؤية وغاب في نشوة صوفية .

وتنبه من غفوته ووجد لسانه لا يزال يتحرك بالآية الأخيرة ﴿ **تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام** ﴾ ، وهبط عليه شيء كالبرد ، ووجد نفسه ترتفع فوق كل الخلافات ، وأدرك حقيقة وهي أن الحواس يمكن أن تقود إلى الأعلى ، وأن تفتح طاقات إلى السماء ، إن سورة الرحمن تقدم أوصافاً حسية للجنتين ، ولكن هذه الأوصاف ترق وتشف ، ويحيطها جو

من نسائم الرحمن ، حتى تجعل المرء يغيب في نشوة صوفية ، وتمتم : حقاً ، إن سورة الرحمن هي عروس القرآن ، كما يقول المفسرون ، ولكنها في الوقت نفسه سياحة صوفية ، جربها بنفسه وهو يكرر ويعيد ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾.

وتوصل إلى يقين من وظيفة الحواس في العملية الفنية ، إنها وظيفة متكاملة ، تبدأ من الحواس وترتفع بها إلى جو من الجمال ، دون أن يغيب الأمران ، ورثى لهؤلاء الأدباء الذين يقفون عند الوظيفة الحسية لا يغادرونها ، ورثى أكثر لهؤلاء الذين يتحدثون عن صوفية " لورانس " ، فقد أدرك بعد أن عاد من سياحته أنها صوفية لا تختلف عن الهزة الجنسية ، وأنها لا تختلف أيضاً عن غيبوبة العقاقير والشراب ، إن وظيفة الأدب المكشوف حتى في أحسن صوره عند لورانس ، هو تفخيم الوظيفة الدنيا للحواس ، فتبدو اللذه وكأنها لذتان ، أما الوظيفة العليا فلها شأن أي شأن ، ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

ورفع عينيه إلى النخلة ، كانت لا تزال تتمايس بسباطها الجميلة ، وحولها ألوان من قوس قزح يشق عنان السماء ، كان هناك هلال وليد يبزغ في الأفق ، وتذكر تهليل الرسول ﷺ وفرحته حين كان يرى الهلال الجديد ، وأخذ يردد الحديث الشريف : " حبب إلي من دنياكم ثلاث : النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة " . ولم يجد غرابة في أن يجمع الرسول ﷺ بين النساء والصلاة . فقام يتخلص من غدة الشيطان ، ثم اغتسل واستقبل الصلاة بقلب سليم .

١٧

سحب تركض في السماء ، تبسط تحتها ظلالاً سوداء ، تتحرك هذه الظلال فوق الرمال البيضاء ، كأنها الوعول المنقطة ، انبثقت مجموعة من الخيل تتدافع وتتداخل ﴿ **والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا** ﴾ .

وتذكر قصة كان قد ترجمها لجريليه ، تحت عنوان " الطريق الخاطىء " . إن جريليه هنا يرصد بحياد حركة الضوء والظلال فوق البركة والأشجار ، ويشبهها بلوحة الشطرنج ، دون أن يعلق أو يحمل الطبيعة قيمة إنسانية ، حتى الرجل الذي يظهر فجأة " يلقي نظرة باردة ، ثم يعود فقد اكتشف أن الطريق خاطىء " .

أما حركة الخيول أول سورة العاديات ، فإنه يحسها متحركة هادفة متطلعة للمستقبل ، إنها ليست مجرد قسم بأشياء نافعة ومحبوبه كما يقول النحاة ، إنها تحمل الاستنفار ، إنها تتطلع للمستقبل وقد امتطى المجاهدون خيولهم يبشرون بكلمة الله ويغيرون على الأعداء ، إن الخيول هنا ليست مجرد خيول ، بل هي خيول المستقبل والعزم والتصميم ، تقدح الشرر ، وتثير النقع ، وتصبح الأعداء .

وأدرك الفرق بين حركة وحركة .

حركة خاوية كقطع الشطرنج عند جريليه تنتهي به إلى العبث ، أو كحبل نيتشه المتوتر ينتهي به إلى الانتحار .

وحركة هادفة ، تبشر بالعقيدة ، وتثير العزم والتصميم والتطلع .

ذلك هو رقص الروح ، وهذا هو الرقص على سطح من الصفيح الساخن .

ونذكر أن " رقص الروح " إنما هو تعبير كان قد قرأه لإقبال في رسالة الخلود ، يوصي به ابنه ويراه سر دين المصطفى .

وتذكر أيضاً أن " الرقص على سطح من الصفيح الساخن " إنما هو عنوان لفيلم أمريكي كان قد رأى إعلانه على الحوائط ، وتبدو فيه ممثلة شبه عارية ، تتلوى كالقطة ، وتخلو عيناها من التعبير .

وأدرك لماذا انتهت الجملة عند اقبال بقيام دولة واحتضان حضارة . ولماذا أنهت صاحبة الفيلم حياتها بالانتحار .

ثم صاح : كم نحن في حاجة إلى رقص الروح .

تطلع نحو الأفق ، كانت السحب لا تزال تركض ، ولكنها كانت بعيدة ، لم ير منها سوى الظلال تتحرك فوق الرمال البيضاء ، كحية رقطاء.

ولكن فجأة داهمته صورة الخيول من جديد ، وهي تعدو ، تضرب الأرض ، تقدح الشر ، تثير النقع ، تهاجم الأعداء ، تدوس الحية الرقطاء .

عندئذ أحس بالخفة ، ثم ارتفع إلى السماء ، يركض مع السحاب ، يستعجل الصباح .

١٨

كانت النار من بعيد تبدو متوهجة ، تتصاعد ألسنتها في أجواء السماء ، فتبدد وحشة الصحراء .

تذكر قصة موسى عليه السلام ، كان قوياً يصفع ويبطش ويقتل وكان ضالاً تائهاً في الصحراء ، حتى بدت له من بعيد نار ، فيمم نحوها يلتمس الدفء أو الهدى .

عندئذ صهرته تلك النار ، وبدلت عنفه إلى ثبات ، وقلقه إلى يقين ، وانزعاجه إلى سكينة .

وتذكر قصة عمر رضي الله عنه ، كان غاضباً مهتاجاً ، فقد سمع لتوه أن أخته قد أسلمت وأنها في دارها تقرأ القرآن مع زوجها ، فتوجه نحوهما . صفع الزوج ، وعنف الأخت ، ثم أخذ المصحف ففتحه فكانت أمامه سورة طه ، فجعل يقرأ ﴿ **وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى ناراً . فقال لأهله امكثوا . إني آنست ناراً . لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودي يا موسى . إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى** ﴾ .

عندئذ صهرته تلك النار ، وحولت عنفه إلى سكينةٌ ، وغيظه إلى رقة ، وكفره إلى إسلام .

وتساءل : مست النار المقدسة موسى عليه السلام ، فوقف أمام فرعون ثابتاً ، لا يخشى صولته ولا جولته .

ومست تلك النار عمر رضي الله عنه ، فجابه المشركين : من أراد أن تثكله أمه ، فليتبعني وراء هذا الوادي .

ثم تحرك من مكانه وهو يقول : من لي بمثل تلك النار .

١٩



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَىٰ ٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا
فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ٩
وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١١

٢٠

كلما يقرأ سورة الضحى يحس باليقين ، كأنه ذلك الرجل الذي قد ضل طريقه في صحراء قاحلة ، اشتد عليه الغيظ ، واشتعلت تحته الرمال ، وكاد يموت ، لولا أن تساقطت عليه حبات برد من السماء فأنعشته .

واستحضر صورة النبي ﷺ ، انقطع عنه الوحي فترة ، فقلق عليه السلام وكان ينظر كل حين إلى السماء ، ينتظر الوحي ، حتى نزلت عليه هذه السورة ، فجددت عنده الأمل .

كلما يقرأ هذه السورة يحس بأنه يرتفع إلى السماء ، وأن قلبه قد اتسع لحب العالمين ، فلا حقد ولا حسد ولا بغضاء .

وكلما يقرأ هذه السورة يحس بالنشوة والانتصار ، لم يعد يأبه بالعقبات فإنها ستصهره ، ولم يعد يخشى المحن فإنها ستصقل قلبه ، وتستخرج أنقى ما فيه .

وكلما يقرأ هذه السورة يحس بالنعاس الذي غشى المسلمين في إحدى غزواتهم فجدد نشاطهم ، وبالمطر الذي هطل عليهم فطهرهم ، وبالملائكة التي كانت بينهم فأمدتهم بالنصر .

وكلما يقرأ هذه السورة يحس بيد أمه تربت عليه عقب حلم مزعج ، وببسمة والده عقب نجاح العملية .

كلما يقرأ هذه السورة ، يستحضر ضوء الضحى ، يفترش طرقات القرية كالحليب المسكوب ، ليس هو نوراً يغمر الأبصار ، وليس هو ظلمة تغشى العيون .

كلما يقرأ هذه السورة يحس بنسمات تهب في يوم قائظ وتولد في نفسه حالة جديدة ، وبحبات من البرد تسقط في يوم حار فتولد حالة جديدة ،

وبصباح يشرق اثر كوابيس الليل فيولد حالة جديدة ، وبانتصار عقب هزيمة فيولد حالة جديدة .

وحاول أن يجد اسما دقيقاً لهذه الحالة الجديدة ففشل ، ولكنه تذكر كلاماً لابن الجوزية عن السكينة التي تهبط على القلوب في مواضيع القلق والاضطراب ، كيوم الهجرة إذ هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رءوسهم.

حينئذ صاح : لعلها السكينة .

كان طائره لا يزال يعلي ، يتحرك جناحاه حركة غير ملموسة ، ورأسه تقف بينهما في ثبات كقائمة الميزان .

٢١

كان الوقت ضحى والضوء لا هو غامر باهر ، ولا هو خافت باهت .

ظهر الطائر في منتصف السماء ، طالت أرجله حتى انغرزت في الأرض ، وارتفعت رأسه حتى جاوزت السحاب .

خلق سود قد تزاحموا على الجناح الشرقي فبدا أسود ، وخلق بيض تعلقوا بالجناح الغربي فبدا أبيض .

كان المنظر بديعاً والطائر يحرك جناحه الأسود يتجاور مع الأبيض كما الليل والنهار في وقت واحد ، من عجيب لم يحس أن في الأمر تضاداً ، بل بالعكس أحس أن اللوحة قد تكاملت .

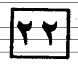
وتذكر على الفور صورة الملك الذي التقى به النبي ﷺ ليلة معراجه كان نصفه من ثلج ونصفه الآخر من نار ، لا الثلج يطفىء النار ولا النار تذيب الثلج .

نظر خلف الطائر ، فوجد صحراء شاسعة ، كانت هناك نخلة تقف وسط الصحراء ، الوقت حار وظل النخلة يفترش الصحراء ، ويتحرك فوق الرمال البيضاء ، أحس بإحساسين في وقت واحد ، الجمال والجلال ، الخوف والأمن ، ولكنه لم يشعر بالتناقض .

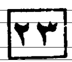
كان الموقف أكبر مما يستطيع أن يعبر عنه ، تمنى في تلك اللحظة أن يكون فناناً تشكيلياً يستطيع أن يرسم لوحه يتجاور فيها الأبيض والأسود ، الليل والنهار ، الظل والضوء ، دون أن يحس المشاهد أن في الأمر تناقضاً أو تضاداً أو شيئاً من الغرابة .

أنقذه من حيرته آيات من سورة آل عمران ﴿ **تولج الليل في النهار ، وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ، وترزق من تشاء بغير حساب** ﴾ .

أحس باليقين ، وعرف أن إعجاز القرآن يكمن أيضاً في التعبير عن روح المكان .



دنا منه الطائر كثيراً ، غطه إلى صدره ثم أرسله ، ألقى إليه ببعض الألغاز ، يختبر بها حسن حظه وعاقبة أمره .



اللغز الأول

شيء برأسين ، ويرفرف في الجانبين ، ويحوز الحسنيين .

٢٤

تذكر على الفور صورة المؤمن ، كما وردت في حديث نبوي ، ينظر بأربع أعين ، عينين في قلبه يبصر بهما أمر دينه ، وعينين في رأسه ينظر بهما أمر دنياه .

وتذكر أيضاً صورة النخلة ، تجمع بين السماء والأرض ، وردد التعبير القرآني ﴿ **أصلها ثابت وفرعها في السماء** ﴾ .

وحمد الله على أن وفقه في كتاب " الوسطية العربية " ، وجعله يتخذ من النخلة رمزاً لتلك الطبيعة التي تجمع بين الأمرين .

وردد الحديث النبوي " نعمت العمة لكم النخلة " ، وأدرك أن الأمر لا يقف عند مجرد صورة بيانية ، بقدر ما هو يضرب إلى حقيقة جوهرية .

حينئذ عزم على أن يكون صورة من النخلة ، جذورها غائرة في التربة ، وفروعها تتراقص مع تيارات الهواء . وبدأ اللغز يتكشف داخله .

٢٥

اللغز الثاني

العبرة في النهاية بالعصارة ، دونما نظر إلى النشارة .

٢٦

توارد إلى ذهنه كلام لابن الجوزيه عن الوسطية ، يراها تتبع الحق فتأخذه ولو كان عند الفرق الضالة .

وتذكر التعبير النبوي عن أن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى كانت .

حينئذ عزم على أن يكون قوياً ، لا يخشى التيارات المعادية ، ولا يقف منها موقف التوجس ، سيحاورها ويلتقط أفضل ما عندها ، فالعبرة بالنهاية . وأخذ اللغز يتضح داخله .



اللغز الثالث

هو حاكم ومحكوم ، ولكل منهما مقام معلوم ، لا يتجاوز ما هو مرسوم .



تحرك لسانه بالآية الكريمة ﴿ **وهو الذي مرج البحرين ، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجورا** ﴾ .

وأحس أن في داخله بحرين يتعايشان ، ملك وشيطان ، خير وشر ، شهوة وحكمة ، فسأل الله وضوح الرؤية .

وتذكر من جديد صورة الميزان ، كان قد اتخذه رمزاً في كتابه " الوسطية العربية " ، يعادل به بين التيارات المختلفة والمتضاربة .

عزم على أن يكون في حياته كالقسطاس المستقيم ، لا يجعل كفة تطغى على كفة ، ولا بحراً يبغي على بحر .

وتكشفت له حقيقة اللغز .

٢٩

عند هذا الحد صاح في نشوة فوز :-

عرفت اللغز ، إنه الوسطية العربية .

- تحوز الدنيا والدين .
- تجري وراء الحقيقة .
- لا تجعل مقاماً يطغى على مقام .

صاح ديك فعرف من صوته أن الفجر الصادق قد أطل . كان صوته قوياً منتشراً ، يتزايد دون أن يتراجع فعرف أنها الحقيقة ، كان هناك عمود من نور ، قوي وواضح ، يخترق الظلام ، كان رقيقاً كالسهم ولكنه كان حاداً ، يشق الظلام ، فيفصله عن النور .

كان اللغز الثالث أشق الألغاز على نفسه .

أن تحتفظ بالمقامين دون أن يطغى أحدهما على الآخر ، أمر يحتاج إلى فطنة .

وأن تكون فوق المقامين معاً ، أمر يحتاج إلى قوة .

وأن تحتفظ بالحركة بين المقامين ، أمر يحتاج إلى توازن .

وألا تخدع بالفجر الكاذب ، أمر يحتاج إلى توفيق .

تذكر الصراط المستقيم الذي يمر عليه الخلق يوم القيامة ، وأنه أحد من السيف وأرق من الشعرة ، وأحس أن اللغز الثالث لا يقل في دقته وحرجه عن هذا الصراط المستقيم .

وتذكر أيضاً ذلك الطائر الذي يقف في منتصف السماء ، جناحان قويان ، يتحركان حركة واحدة ، ويخفقان خفقة واحدة ، ورأس بينهما كقائم الميزان تحفظه من السقوط .

كان صوت الديك لا يزال قوياً ملحاً يضرب في أغوار الليل ، وكان عمود النور لا يزال يخترق فلول الظلام ، وكان صاحبنا قد أحس برجفة شديدة بعد أن حل اللغز الثالث ، فقام يحتضن الكون بظلامه ونوره دون أن يحس بالتناقض ، فهو أقوى من كل شيء .

٣١

كان يظن أن طائره سوف يخر صريعاً عقب اكتشافه اللغز .

ولكن وجده ينظر إليه في سعادة وحنو ويمد إليه يده .

عرف أنه لم يبرأ بعد من مضغة الشيطان ، وأن الأسطورة الإغريقية عن " أبي الهول" الذي يطرح الألغاز لا زالت تعيش داخله .

كان أبو الهول يلقي اللغز ، فإذا عجز الإنسان عن حله قتله .

وحدث أن " أوديب "قد فك اللغز فسقط أبو الهول تحت قدميه صريعاً.

أدرك في تلك اللحظة أن هذه الأسطورة تعبر عن روح صراع بين الكون والإنسان ، فالمرء إما قاتل أو مقتول .

كان الطائر لا يزال ينظر إليه في سعادة وحنو ، ويمد إليه يده .

أدرك أنه يعيش في منطقة أخرى وأن عليه أن يبرأ من بقايا الشيطان .

هنا تتصالح الأشياء ، يحب المرء الطبيعة ، وينظر الطائر إلى الإنسان نظرة السعادة والحنان .

هنا لا قاتل ولا مقتول ، الكل تحت رعاية الله .

لم يعد يستغرب صورة الثلج مع الماء دون أن يطغى أحدهما على الآخر ، ولا صورة البحرين اللذين يتعايشان دون أن يبغي أحدهما على الآخر .

لم يعد يشعر حتى بالغرابة في ذلك ، فكل شيء مرهون بأمر الله .

٣٢

كان الطائر يمد إليه يده ويشير إليه بأن يتبعه .

وجد نفسه يخف ويشف ويتحول إلى طائر .

انطلق قوياً في السماء ، كصاروخ يخرج وراءه سحباً من نور .

تحول إلى كوكب لامع ، يقف في وسط السماء ، يشع نوراً في الشرق والغرب ، نور على نور .

رأى الناس تشير إليه بالبنان ، وسمع الجدات ينشدن قصته للأطفال .

فأحس أن سفر النصر قد بلغ تمامه .

٣٣

في لحظة خاطفة كالمعجزة أدرك السبب والنتيجة معاً .

في لحظة خاطفة كالإلهام ، تكشفت له الآية الكريمة ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس** ﴾ ، عن طاقات من الإشراق والتجليات .

أحس أن العقل العلمي بمناهجه المعهودة ، بطيء الخطوات ، لابد أن ينتقل من مرحلة إلى مرحلة ، ومن سبب إلى مسبب ، لابد من طريق طويل حتى يصل إلى الغاية .

لم يعد الآن وهو كوكب في منتصف السماء ، في حاجة إلى هذا الطريق الطويل أصبح يدرك كل شيء في لحظة خاطفة كالمعجزة .

رأى الناس في الشرق والغرب تشير إليه وهو في مكانه وسط السماء ، يتخذونه علامة على الطريق الصحيح ، أهل الشرق يسترشدون به ، وأهل الغرب يسترشدون به ، يجتمعون عليه وإن تفرقت بهم السبل .

فعرف أنه قد تحول إلى نموذج ، وتفتحت له الآية الكريمة عن تجليات كثيرة ، لم يعد في حاجة إلى أن يكرر ما ذكره في كتابه "الوسطية العربية" ، عن معنى الوسطية ولا عن معنى الشهادة ، أصبح يقع كل ذلك في قلبه في لحظة واحدة ، يتحد فيها الدال والمدلول ، وفي لغة تختصر الخطوات الطويلة والمتأنية .

لم يعد يشعر بالغرور والكبرياء .

اختفت تلك اللغة من قاموسه .

يكفيه أنه في منتصف السماء ، وأنه يضيء الشرق والغرب ، وأن الناس تستشهد به على الطريق الصحيح .

لا يبحث عن السبب فهو يعيشه ، ولا يشعر بالغرور ، فقد اختفت منه الذات ، واندمجت في الكل.

تحول إلى طائر يجول في سماء المنطقة ، يبحث عن الموعود .

وتحول إلى كوكب لامع يضيء الشرق والغرب معاً .

وأشرقت الأرض بنور ربها .

٣٤

تمت كلمة الله

" والله ليتمن هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه " (البخاري ي – ٤/٢٠٠) .

٣٥

من مرقبه وهو وسط السماء :-

رأى نفسه وهو يجلس في موسم الحج ، كان بجانبه تركي يحادثه وكأنهما صديقان قديمان ، كان يصغي إلى لغته العربية وهو يحمل المصحف الشريف ، وكأنه يستمع إلى ترانيم صلوات .

ورأى نفسه وهو في جيبوتي ، يجلس مع أسرة يمنيه ، كانت تتحادث معه دون تحفظ وتقدم له من فواكه بستانها ، حتى إذا أقبل جندي فرنسي ، انكمشت على نفسها ، وتغيرت لهجتها .

ورأى نفسه وهو في لندن بين الأسر الباكستانية ، في شقة منزوية ، كتب عليها باللغة العربية "مسجد" ، كانوا يتحلقون حوله ، ويقدمونه للصلاة ، ويدلونه على الأماكن التي تقدم اللحم الحلال .

ورأى نفسه وهو في نيجيريا ، كان اليوم يوم الجمعة ، الجميع يلبسون الأبيض ، ويذهبون إلى المسجد ، وكأنهم في موسم الحج ، كان الخطيب يخطب بلغة الهوسا ، ثم يعيد الخطبة باللغة العربية ، فأحس بالامتلاء ، وبأن الناس ينظرون إليه بإعجاب .

ورأى نفسه وهو في شانغهاي ، وحوله خمسة من طلبته الصينيين ، يتهتهون باللغة العربية ويطلبون منه أن يقوم نطقهم .

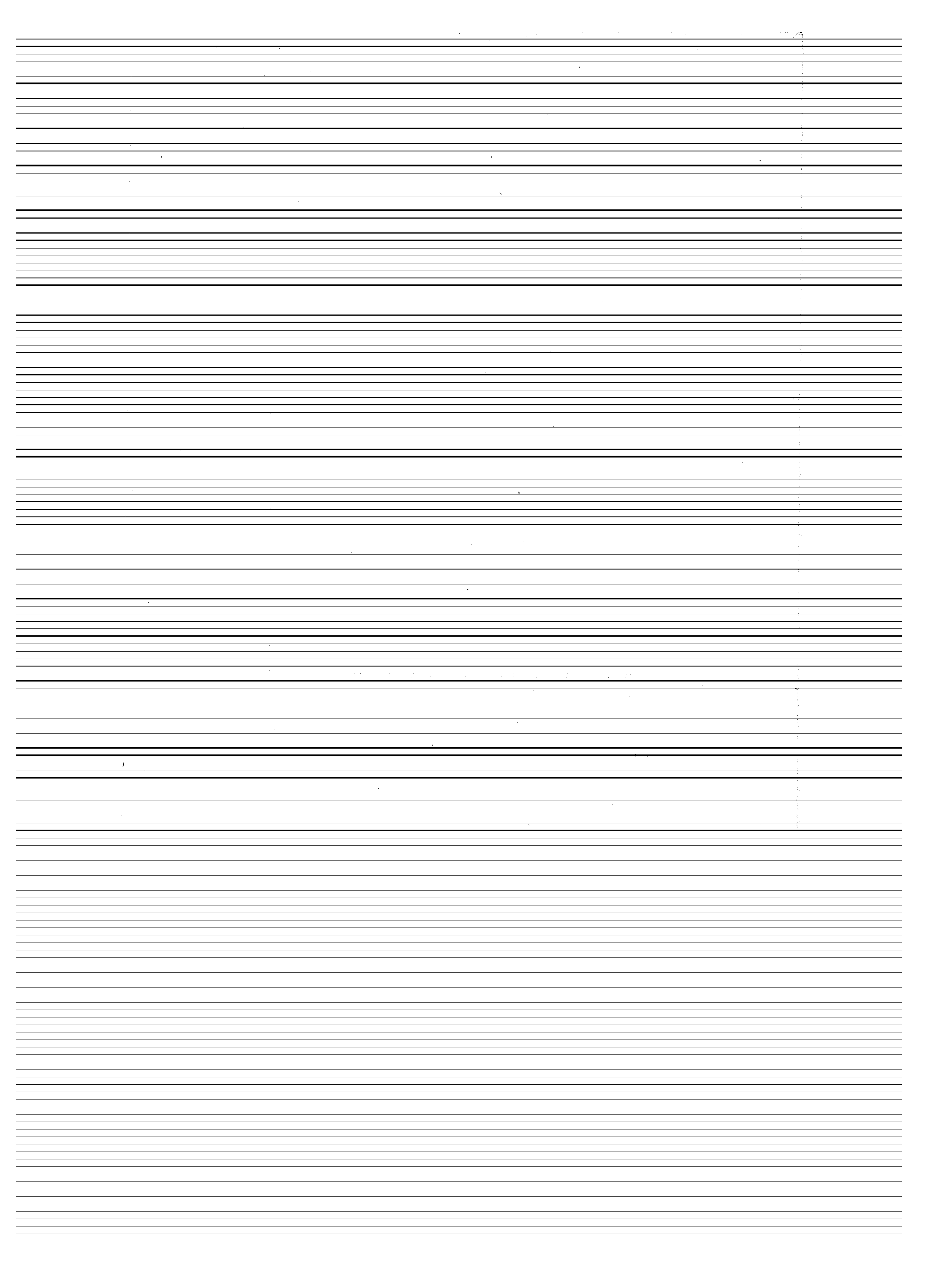
ورأى نفسه في قصر الحمراء بقرطبة ، ومرافقه الأسباني يحل له الأشعار العربية ، المكتوبة على الجدران ، ويشير إلى الفسقيات والفسيفساء .

ووجد نفسه أخيراً تصيح : أينما أتوجه أجد الرفيق ، وتزول عني وحشة الطريق ، في الشرق وفي الغرب أجد من يتفهم إشاراتي ، وينتظر كلامي .

وأعاد تلاوة الحديث النبوي من جديد ، وأحس باليقين ولم يعد يخشى الذئاب ، فقد " تمت كلمة الله " .

وكان هذا هو العنوان الذي اختاره للحديث النبوي .

سفر الكرب



١

كانت الشمس تجنح نحو الغروب ، والظلال تمتد في الأفق الشرقي .

نظر إلى طائره فوجده قد أحس بالإجهاد ، وفقد توازنه ومال نحو الغرب.

لاحظ أن جناحه الغربي كان خالياً من الريش تقريباً ، ولمح آثار دماء قد تجمعت حولها بعض الهوام والحشرات .

ولأمر ما تذكر ما قاله في نهاية مقدمة كتابه " الوسطية العربية " ، "الوسطية العربية تشبه صقراً ، يتمتع بجناحين قويين ، يحفظان توازنه في السماء ، فإن اهتز الجناحان أو أحدهما ، اختل التوازن ، وسقط على الأرض فريسةً للهوام والدواب" .

كانت الشمس قد اختفت تماماً ، ولا يزال طائره ينظر إلى أعلى ، ولا يأبه للصغار ولا يعبأ بما يدور حوله .

٢

كان صوت الديك ضعيفاً متردداً ، فعرف للتو أنه الفجر الكاذب ، وأن عليه أن يلزم فراشه . وكان الأفق يتحرك بأضواء غير واضحة كأنها الأشباح المعروقة .

جاءه من بعيد صوت مؤذن أجش ، لم يهتز لنداءاته ، ولم يستشعر نحوه بالسكينة ، تذكر أن الرسول ﷺ قد حذر من صياح بعض المؤذنين ، الذين يراءون الناس بهزيع من الليل ، وقبل أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .

ثم قال في نفسه : هؤلاء هم المراءون ، وهذا هو الفجر الكاذب ، وهذا هو هزيع الليل .

كان اللغز الثالث أقوى من أن يحتمله ، وكان الإجهاد قد بدا على طائره ، اختلت أجنحته ومالت رأسه .

وأدرك أن حل اللغز الثالث لم يكن بذكائه ولا اجتهاده ولا حتى بعمله، ولكن بتوفيق من الله .

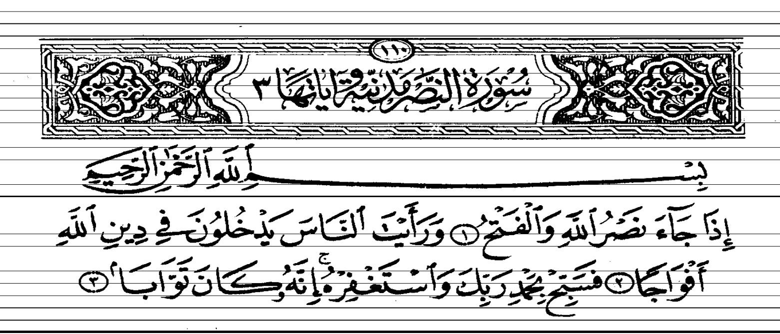
وأحس أن كلمة " التوفيق " فوق طاقاته وحساباته البشرية .

قد يعمل عمل أهل الجنة ثم يكون من أصحاب النار .

وقد يعمل عمل أهل النار ثم يكون من أصحاب الجنة .

هاجمته الحيرة ، وتكاثفت عليه الألغاز ، ووجد أن النوم هو خير الحلول ، فاستسلم لنعاس طويل .

٣



(١١٠)

سُورَةُ النَّصْرِ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا ٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ
أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

٤

قرأ سورة النصر فأحس بالانقباض ، استشعر ابن عباس رضي الله عنه أنها تنعي لهم رسول الله ﷺ استصوب الرسول رأيه وقال عنه " لقد أوتي هذا الغلام علماً كثيراً " ، سموها سورة التوديع ، فقد كانت هي آخر ما نزل من القرآن الكريم .

أدى ﷺ الرسالة ، وبلغ الأمانة ، وبقي عليه أن ينتظر لقاء ربه ، وقال لأصحابه عقب نزول هذه السورة " إن عبداً قد خيره الله بين الدنيا وبين لقائه والآخرة ، فاختار لقاء الله " .

ولم يمض على نزولها أكثر من سبعين يوماً ، حتى لحق بالرفيق الأعلى .

قام من مكانه وهو يلوح بيديه في كل جانب ، وكأنه يطارد أعداء قد تجمعت حواليه .

٥

لا يـدري لمـاذا يحس بنبرة الإشفاق في دعـاء الرسـول ﷺ " يـا مقلـب القلوب ثبت قلبي على دينك " ، ولا يدري لماذا كان ﷺ يلح على أصحابه أن يرددوا هذا الدعاء كل صباح ومساء .

وكل ما يدريه أن عمر رضي الله عنه قد استشعر الإشفاق نفسه ، حـين رأى أن الإسلام قد بزل وكمل ، وماذا بعد الكمال إلا النقصان .

يبدو على القمـر علامـات النـدوب ، وتكسـر في بعـض أجزائـه ، كـان الهواء كثيفاً خانقاً ، وظلال النخيل تسد الأفق .

كان يقرأ في مقدمة ابن خلدون ، فأحس أنه يرثي الحضـارة الإسـلامية ، يتحدث عن أن الملـك إذا بلـغ الكمـال ، يـؤذن بـالزوال ، كـان يفـوح في حديثه رائحة البكاء بين الأطلال ويردد : تلك سنة الله ولن تجد لسـنة الله تبديلا ، تلك الأيام نداولها بين الناس ، وقل اللهم مالك الملك تؤتي الملـك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء .

تسربت إلى نفسه نبرة الرثاء ، وكان القمر قد اختفى في السماء .

٦

من حكم لقمان

يا بني ، أكلت الحنظل ، وذقت الصبر ، فلم أر شيئاً أمر من الفقر

(المستطرف في كل فن مستظرف - ٢/٢٤٢)

٧

موال صعيدي

حكمت ع السبع راح للكلب حد الكوم
لما صحي الكلب حال لو السبع صخ النوم
أنا أســألك يا رب يا مجري بحر العـــوم
ترجـــع السبع يخـــطر زي عاداتـــه
وترجـــع الكلب ينبش في تراب الكـــوم

٨

أزمة الزيت



بـريشة عمرو محمد فهمي
مدرسة النـاصرية - الاسكندرية

الأخبار في ١٩٨٨/٤/٨

إحصائية

ومع أن الأمة العربية تنتج حالياً ما يعادل ١٨ مليون برميل في اليوم من إنتاج العالم البالغ ٥٢ مليون برميل في اليوم الواحد فإنها لا تكرر أكثر من ٣,٥٪ من طاقة العالم على التكرير ، والنفط العربي يصدر إلى المناطق الآتية :

١- أوروبا الغربية وتأخذ ٤٩٧,٥ مليون طن في العام .

٢- اليابان وتأخذ ١٥٥ مليون طن في العام .

٣- الولايات المتحدة وتأخذ ٤٠ مليون طن في العام .

٤- بقية أجزاء العالم وتأخذ ١٦٠ مليون طن في العام .

" كتاب شهود العصر - الأهرام - ١٩٨٦ "

١٠

لغة الأرقام

وخبراء وزارة المال والتجارة الأمريكية يتوقعون أن يكـون الوضـع المـالي بـين البـلاد العربيـة المنتجـة والمصـدرة للنفـط ، وبـين الولايـات المتحـدة الأمريكية ، على النحو التالي :

١- سيبلغ صافي أرباح الشركات الأمريكيـة مـن صناعـة النفـط العربيـة ثلاثة بلايين من الدولارات في عام ١٩٧٥ ترتفـع إلى ٤,٣ بليـون دولار في عام ١٩٨٠ .

٢- يقدرون دخلهم من خدمات النقل مع الوطن العربي بـ ١,٤ بليـون دولار في عام ١٩٧٥ ، وترتفع إلى بليوني دولار في عام ١٩٨٠ .

٣- يقدرون أن يصدروا بضـائع وخدمـات إلى الوطـن العربـي بقيمـة ٥ بلايين من الدولارات في عام ١٩٧٥ ، ترتفع إلى ١٠ بلايين من الدولارات في عام ١٩٨٠ .

٤- إنهم يقدرون أن يـزداد حجـم صـادراتهم مـع البـلاد الأخـرى التـي تحصل على عوائد نفطية (بلاد المرور) ، من ثمانية ملايين من الـدولارات في عام ١٩٧٣ ، إلى ١,٧ بليون دولار في عام ١٩٨٠ .

٥- يتوقعون في وزارتي المالية والتجارة في أمريكا ، أن تبدأ الدول العربية المنتجة والمصدرة للنفط ، بتوظيف أموالهـا الفائضـة عـن حاجتهـا ، في الصناعة في بلادهم فتبدأ هذه الأموال العربية تتدفق ابتداء من عام ١٩٧٥ ، بمعدل سـنوي قـدره ٢,٧ بليـون دولار ، يرتفـع إلى ٥,٤ بليـون في عام ١٩٨٠ .

" شهود العصر "

١١

من عنواين الأفلام والمسرحيات

- خذ الفلوس واجري
- خلطبيطة
- حزمني يا بابا
- ماما أمريكا
- الإرهابي
- تتجوزيني يا عسل
- شارع محمد علي
- العين الحمرا
- تكسب يا خيشه
- إزاز في إزاز
- يا تحب يا تقب

١٢

من عناوين الصحف

- مشاهير سقطوا في شباك الجميلات .
- سيدة تكتشف رسائل السلع والمواد الغذائية غير الصالحة .
- مهندسة تتعاطى رشوة لاستخراج رخصة بناء عقار .
- اعترافات سفاح الأطفال .
- إبراهيم نافع يكتب عن " كابوس الإرهاب وسقوط الأقنعة " .
- سقطت آخر العنقود ، وهي تتاجر في الأقراص المخدرة .
- الزوج المهاجر بلا عنوان .
- ٨ سيارات نجدة لتأمين قاعة المؤتمرات .
- المحامي والمحاسب سرقا ١٢٠ ألف ريال من كفيلهما .

١٣

القاموس العصري (*)

أحمد عدوية : مغني ذائع بين جماهير المصريين ، وتوزع " كاسيتاته " بكثرة ، وقد حقق من وراء ذلك أموالاً وسيارات وعمارات ، له أتباع كثيرون ، ومن أشهر أغانيه :

السح الدح امبو ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ إدي الواد لأبوه

أرنب : حيوان يؤكل ، ويتناسل بكثرة ، وقد أصبح يستخدم في معنى جديد بعد عصر الانفتاح في مصر ، فهم يطلقونه على " المليون " جنيه بجامع أن المليون مثل الأرنب تتناسل بكثرة ، ويمكن بالفهلوة أن تتحول بسرعة إلى ملايين كثيرة .

الإيدز : كلمة أمريكية مكونة من عدة حروف " A.I.D.S " وهي مختصرة من Acquired Immune Deficiency Syndrome وهو مرض يصيب الجسم بفقدان المناعه ، فلا يستطيع المقاومة حتى يتحلل ، ويقال إن للشذوذ الجنسي دوراً رئيسياً في انتشار هذا المرض ، وقد تسلل هذا المرض إلى البلاد العربية ، كما أثبتت ذلك منظمة الصحة العالمية .

بترول : وهي مأخوذة من الكلمة اللاتينية Petroleum ويقابلها في اللغة العربية كلمة نفط ، وقد اكتشف النفط في البلاد العربية في العصر الحديث ، وأصبحت البلاد العربية أكبر منتج للبترول في العالم ، فحصة الأقطار العربية الخليجية من فوائض الأوبك المالية تبلغ ٩٠٪ كما جاء في

(*) مجهول المؤلف ، ونكتفي بذكر نماذج منه ، وهو مرتب أبجدياً . " المحقق "

مجلة النفط والتنمية (أيلول ١٩٨٥) ، وقد بلغت عائدات البترول للدول العربية سنة ١٩٨٠ نحوا من ٢٠٤ مليار دولار ، كما جاء في التقرير الاستراتيجي الصادر عن صحيفة الأهرام سنة ١٩٨٦م .

وكان من نتيجة ذلك أن دخل العرب مرحلة جديدة في تاريخهم ، يستوردون السيارات والمأكولات والملبوسات وأدوات الزينة والتجميل ، ويتمتعون بنعم الله التي لا تحصى ، ويحمدونه عز وجل على أن سخر لهم الأمريكان والطليان وسائر الفرنجة يستخرجون لهم البترول ، ويصنعون لهم الآلات والمستوردات ، وهم آمنون مطمئنون ، تحقيقاً لدعوة إبراهيم عليه السلام ﴿ **رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات** ﴾ .

بنك : وهي ترجمة للكلمة الإنجليزية **Bank** ويقابلها في اللغة العربية كلمة "مصرف" . وأشهر البنوك ما كانت في لندن ونيويورك وجوهانسبرج ، والعرب يودعون أموالهم في تلك البنوك حرصاً على نعمة المال التي أمر الله بصيانتها ، وقد قدرت الفوائض المالية البترولية المستثمرة في الغرب بنحو ٣٠٠ مليار دولار سنة ١٩٨٠ ولأربع دول عربية فقط ، كما نشرت صحيفة الأهرام في عددها ١٩٨٦/٥/٩م .

جبنة : كلمة عربية تطلق على مستخرجات الألبان ، وهي أنواع وأجودها ما كان يصنع في فرنسا، ويغرم العرب بنوع منها يسمونه البقرة الضاحكة **La Vache Quirit** ومرسوم على غلاف العلبة بقرة تضحك ببلاهة ، وقد فتحت فمها بشراهة واتسعت فتحتا المنخرين ، وأطلت من أذنيها علبتان من الجبن كالقرط الثمين ، ونظرتها تتسم بالبلادة والشراهة والغفلة ، والسعادة الزائفة التي لا تنظر إلى جلاديها وكأنها مساقة دون فهم .

خرمنا التعريفة ودهنا الهوا دوكو : من أمثلة العامة ، وهي بديل لكلمة "الفهلوة" ، والفرق بينهما أن الفهلوة تعتمد على الخبرة والحيلة ، أما هذا المثل فهو يحقق المطلوب دون تعب ولا دوشة .

الخنزيرة : نوع من المرسيدس مثل " الزلمكة " و "الشبح" و "البودرة" .

دولار : عملة أمريكية ، وهي فئات ، وعلى كل فئة صورة لرئيس أمريكي .

ففئة دولار عليها صورة واشنجتون ، وفئة ٥ عليها صورة لينكولين ، وفئة ١٠ عليها صورة هاميلتون ، وفئة ٢٠ عليها صورة جاكسون ، وفئة ١٠٠ عليها صورة فرانكلين .

وهي عملة محترمة جداً في البلاد العربية ، وتزداد قيمتها بازدياد أرقامها ، وتقاس مقادير الرجال بحسب تلك الأرقام .

14

المقدمة [1]

وواضح أن أغلب الكلمات أصلها أجنبي ، وهي تهتـم بـالنواحي المادية الحياتية ، أما النواحي الدينية والمعنوية فلا حاجة إلى ذكرها فهي مستوفاة في القواميس القديمة ، وخاصة لسان العرب .

[1] بعد أن استوفى صاحب القاموس المواد حسب ترتيبها الأبجدي ، ذكر تلك المقدمة وهي وإن كانت قصيرة إلا أنها ذات دلالة بالغة ، ويلاحظ أنه قد وضعها في نهاية القاموس ، لأسباب لازلنا نجهلها . " المحقق "

١٥

أستشعر أن هذا الليل لا يؤذن بالاسفار ، وأحس أن الظلمات تتكاثف وتتتابع كأنها كتائب من الجنود ، تدك الأرض ، وتثير الفزع ، ارتفع شخير الناس في المدينة تحركت الأشباح .

جاء صوت الشيخ عبد الرحمن الجبرتي يتلو :

" فغيمت السماء غيماً كثيفاً وأرعدت رعداً مزعجاً عنيفاً وأمطرت مطراً غزيراً وسيلت سيلاً كثيراً ، فسالت المياه في الجهات وتوحلت جميع السكك والطرقات فاشتغل الناس بتجفيف المياه والأوحال ، ولطخت الأمراء والعساكر بسراويلهم ومراكيبهم بالطين ، والفرنساوية هجموا على مصر وبولاق من كل ناحية ، ولم يبالوا بالأمطار لأنهم في خارج الأفنية وهي لا تتأثر بالمياه كداخل الأبنية ، وعندهم الاستعداد والتحفظ والخفة في ملابسهم وما على رؤوسهم ، وكذلك أسلحتهم وعددهم وصنائعهم ، بخلاف المسلمين ، فلما حصل ذلك اغتنموا الفرصة وهجموا على البلدين من كل ناحية وعملوا فتائل مغمسة بالزيت والقطران ، وكعكات غليظة ملوية على أعناقهم معمولة بالنفط والمياه المصنوعة المقطرة التي تشتعل ويقوى لهبها بالماء ، وكان معظم كبستهم من ناحية باب الحديد وكوم أبي الريش وجهة بركة الرطلي وقنطرة الحاجب وجهة الحسينية والرميلة ، فكانوا يرمون المدافع والبنبات من قلعة جامع الظاهر وقلعة قنطرة الليمون ، ويهجمون أيضاً وأمامهم المدافع وطائفة خلفهم بواردية يقال لهم السلطات يرمون بالبندق المتتابع ، وطائفة بأيديهم الفتائل والكعكات المشتعلة بالنيران يلهبون بها السقائف وضرف الحوانيت وشبابيك الدور ، ويزحفون على هذه الصورة شيئاً فشيئاً ، والمسلمون أيضاً بذلوا جهدهم وقاتلوا بشدة

همتهم وعزمهم وتحول الأغا وأكثر الناس إلى تلك الجهة وزلزلوا في ذلك اليوم والليلة زلزالا شديداً ، وهاجت العامة وصرخت النساء والصبيان ، ونطوا من الحيطان ، والنيران تأخذ المتوسطين بين الفئتين من كل جهة ، هذا والأمطار تسح حصة من النهار وكذلك بالليل من ليلة الجمعة وكذلك الرعد والبرق " .

١٦

آوى إلى فراشه حزيناً ، فالقدس قد ضاع ، ولم تبق إلا الكلمات يتدرع بها الناس ، ويخلقون عالماً من الأحلام .

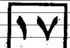
رأى نفسه تخف ، وتفارق الفراش ، وتصعد البراق .

كان البراق يخترق الظلام كأنه صاروخ ، قوائمه محجلة يتطاير منها الشرر يصدر منه غطيط كأزيز المحركات .

وما هي إلا هنيهة حتى ظهر بيت المقدس ، لم يكن هناك أنبياء يصطفون للصلاة ، كان هناك أطفال صغار ضامرو الوجوه ، يلقون الحجارة بغيظ ، على مجموعة من العساكر تتستر بسحب من الدخان الأسود ، وتقفز هنا وهناك كالقردة والخنازير .

تقدم من الأطفال ليؤمهم للصلاة ، فأشاروا إليه بأن يتنحى بعيداً فليس هو إمامهم المنتظر .

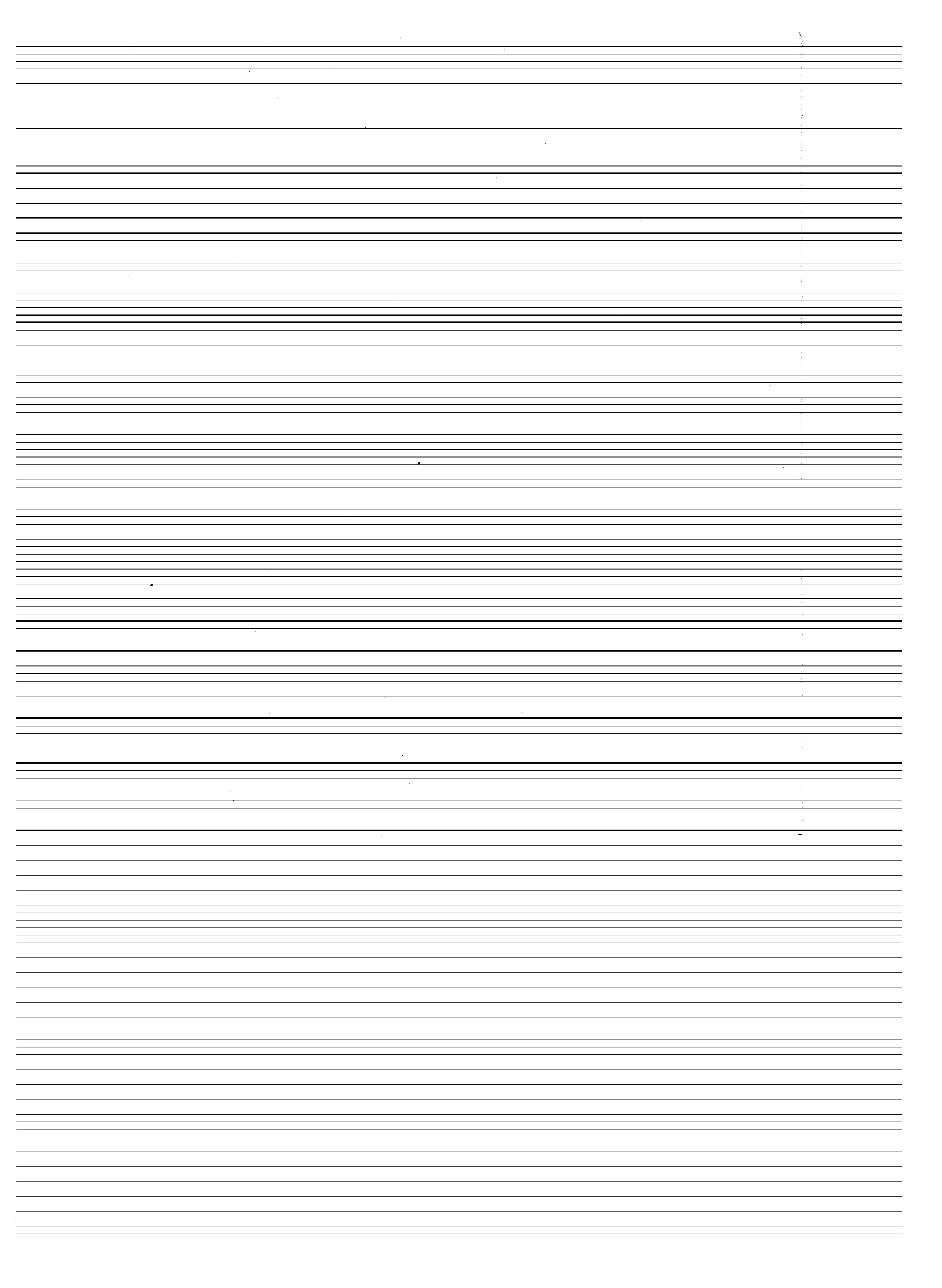
حينئذ تبخر البراق أمام عينيه ، ووجد نفسه من جديد يتقلب على فراش كوخز الإبر .



كوابيس تنغص عليه نومه ، تظهر مخلوقات بذيول طويلة ، وعيون تلهب بالشرر ، كانت تجلده بالسياط ، وتقف فوق بطنه .

صرخ صرخة قوية سدت الأفق ثم صاح : اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه .

سفر الفلق



١

أحس بحركة تدب في جناح الطائر ، لعله يريد أن ينهض وأن يعيد توازنه ، وضع يده على قلب الطائر فوجده لايزال ينبض ، ويضخ الدماء ، فحمد الله وقال : كل شيء يهون ما دام القلب سليماً.

رأى مجموعة من الأطباء يتجمعون حول الطائر ، كانوا من جنسيات مختلفة ، مصري ، سعودي ، يمني ، شامي ، مغربي ، تونسي ، تركي ، باكستاني ، أفغانستاني .

تذكر على الفور المؤتمر الذي عقده الكواكبي في كتابه " أم القرى " ، لعلاج أدواء الأمة الإسلامية، ثم قال :

لعلهم يفلحون هذه المرة في أن يجعلوا نظرته تتجه ولو قليلاً إلى أسفل ، لعله يتنبه للصغار ، فنحن في عصر الصغار ، لعله يفطن إلى المكائد فنحن في زمن المؤامرات .

٢

كان توفيقاً من الله أن يلهمه حل اللغز الثالث .

تفتحت له كلمة " توفيق " هذه المرة عن معنى جديد لم يخطر له من قبل.

تعجب كيف كان هذا المعنى غائباً عنه من قبل . لعله هو قد تغير من داخله ، لعله أراد هذا المعنى فجاءه يسعى ، لعله قد تعرض له ، قد اقترب منه ذراعاً ، فجاءه يهرول إليه باعاً .

ليس كل هذا مهماً ، ولكن المهم أن هذا المعنى الجديد لم يصبه بالحيرة ، ولم يجعل النعاس يزاحمه .

نفض عن نفسه غبار الكسل ، ونهض يقاوم الكوابيس ، ويطارد فلول الظلام .

حقاً قد يعمل عمل أهل الجنة ثم يكون من أصحاب النار ، ولكن هذا لا يعني تحريضاً على ترك عمل أهل الجنة .

وحقاً قد يعمل عمل أهل النار ثم يكون من أصحاب الجنة ، ولكن هذا لا يعني إغراء بعمل أهل النار .

إن كل هذا يعني ألا يعتمد المرء على حساباته الشخصية ، وألا يستنيم إلى قدراته البشرية .

في غيبة التوفيق ، قد ينجح فيغتر ، وقد يفشل فيحبط ، وفي كلتا الحالتين سوف يدع العمل البتة .

ومع التوفيق سيظل باب العمل مفتوحاً حتى النهاية ، إنه يعمل في استماتة دون توقع للجزاء . إنه يعمل لأنه يجب أن يعمل ، ولأنه يجب أن يظل يعمل ، سواء واتته الحسابات أو خانته .

وتفهم تماماً الحديث النبوي " يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك ، إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله ، فمن شاء أقام ، ومن شاء أزاغ " .

إن هذا الحديث لا يعني الفوضى ولا التخبط ولا ترك الأسباب ، ولكنه يعني التنبه للحسابات العليا ، والتيقظ لما لا يكون في الحسبان ، وترك الباب مفتوحاً لاقتناص الفيوضات .

إنه يعني الخشية واستمرار العمل ثم التعرض للنفحات .

عند هذا الحد كان الفجر الصادق قد بدأ يطل من جديد ، وانبعثت الأصوات تؤذن من كل جانب، واختلطت أصوات المؤذنين في نغمة جماعية ، ثم تعالت كأنها تسابيح الملائكة .

أحس بالرضا ، ثم سأل الله التوفيق .

٣

كلما عاود قراءة سورة النصر ، أحس فيها بمعان جديده تتجاوز مخاوف ابن عباس رضي الله عنه .

قد تحمل هذه السورة معنى التوديع ولكنها في الوقت نفسه تحمل معنى البقاء والامتداد ، وعرف لماذا غلب عليها اسم " سورة النصر " ولم يغلب عليها اسم " سورة التوديع " ، وعرف لماذا كان يحس النبي ﷺ بعد قراءتها بالاستبشار والتفاؤل .

وأدرك أن روح هذا الدين لا تضيع ، إن الحياة فيه تنبثق من الموت ، وإن النصر فيه ينبثق من المحنة ، وإن البناء يرتفع فوق الأنقاض ، وإن مع العسر يسرا .

وانهمك يتلو سورة " الشرح " .

٤



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ٢ الَّذِي أَنقَضَ
ظَهْرَكَ ٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ٥ إِنَّ مَعَ
الْعُسْرِ يُسْرًا ٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ٨

٥

بعد أن فرغ من قراءة السورة ، أحس كأنه قد خرج لتوه من مغسله ، نقياً طاهراً ، قد تخلص من كل الأوزار والأوضار ، وأنه خفيف يرقى إلى قمة عالية ، ليس بينها وبين السماء حجاب .

وأحس أيضاً أن السورة في نهايتها تستنفر قواه لكي يحتفظ بالقمة ، تدعوه كلما أحس بالفراغ أو الفتور أو الونى ، أن يتعب وينصب ، وإلى ربه يرغب ، حتى يظل دائماً مشدوداً في قمة توتره ، وفي مشغوليته التي لا تعرف الفراغ .

إن الحركة هي الحياة ، وإن الفراغ هو الموت ، وإن السكينة هي الثبات ، أول السورة يدعو إلى السكينة وآخرها يغريه بالحركة .

كم هي مسئولية جسيمة ، وتذكر على الفور حركة الأجنحة الخفيفة والمتواصلة ، ونظر إلى عين الطائر ودعا له بالثبات ، ولمح قطرات الدم فوق جناحه الغربي قد تجمدت ، ثم عزم على أن يحتفظ بالقمة مهما كانت الأسباب ، ولن يسقط هذه المرة وأخذ يطهر الجرح من الهوام والحشرات .

٦

أخذت عينه تتنقل بين الإحصائيات ولغة الأرقـام والمواويـل ومفـردات الحياة اليومية فأحس بأنـه يختنـق ، وتحولـت الدنيـا أمامـه إلى لـون كـاب ، وتحركت أمعاؤه ، وأحس بالغصة ، وتمنى لو يتلاشى ، لو يموت .

ولكن شيئاً ما بدأ يتحرك داخله ، يأتيـه في تلـك اللحظـات ، لا يعـرف سببه ولا مصدره ، ولكن يجعله يحس أنه فوق الغصة والقيء والغثيان .

وتذكر حلماً كان قد رآه وهو صغير ، لا يزال هذا الحلـم يعـاوده على غير موعد ، وفي وضوح وجـلاء أكبر من الحقيقة نفسها ، كان صغيراً قد نام وهو حـزين ، فرأى نفسه محبوسـاً في بـاطن الأرض ، تكـاد تعتصـره ، ولكن فجأة تنمو له أظفار طويلة وخشنة ، أخـذ يحفـر في بـاطن الأرض ، شيئاً فشيئاً ، حتى استطاع أن يحفر له سرداباً طويلاً ضيقـاً ، أفضـى بـه إلى فتحة ، أزاح عنها بعض التراب ، أطل منها كـأرنب صغير ، فلمـح ضـوء الشمس ، ووجد الدنيا تضحك له ، ووجد شقيقه في انتظاره أمـام الفتحـة يصفق له .

لم يعد هذا الحلم حلماً ، بل أصبح حقيقة تعـاوده فجـأة دون مقدمـات ولا أسباب ، كان مرة يستمع إلى سيمفونية القـدر وأحس فيهـا بصـوت رفيع رقيق ، تحاصره وتطارده أصوات خشنة ، تريد أن تخنقه ، ولكـن هـذا الصوت الرفيع الرقيق يمضي في طريقـه لا يبـالي ، وعـاوده حينئـذ حلمـه ، وتذكر أظافره الطويله التي تشق السرداب .

وأراد أن يشرح كـل ذلـك لطفلـه ، الـذي كـان يستمع معـه إلى تلـك الموسيقى ، ولكنه لم يستطع ، فقد كان طفله صغيراً ، لم يجرب بعـد تلـك الأصوات الخشنة ، فاكتفى بأن ذكر له أن هذاالصوت الرفيع الرقيـق ، إنمـا

هو صوت غزالة جميلة ، تجري والصيادون يلاحقونها بأصواتهم الخشنة ، كانت لا تبالي ، تجري وهي تغني منتشية ، والصيادون يلهثون وراءها ، حتى سكتت الأصوات الخشنة ، ولم يعد هناك صوت سوى ذلك الصوت الرفيع ، يملأ الأسماع ، ويتصدر اللحن .

وأحس كما لو أن الله معه ينتشله من الغصة في الوقت المناسب ، ولم يعد يخشى شيئاً ، ولم تعد الصعاب تحطمه ، بل أصبحت تبعث في داخله صوتاً رفيعاً يتحدى الصيادين ، وتذكر من جديد فتحة السرداب ، وشقيقه الذي يصفق له ، وتذكر كاتباً شاباً ، يجد عنده ذلك الصوت الرفيع الرقيق ، الذي يطل برأسه عنيداً ، يتحدى الأصوات الخشنة وخبطات القدر ، وأعاد من جديد قراءة قصته " اليمامة المضروبة " ، وتمنى لو أن عنوانها كان " اليمامة العنيدة " .

وتفتحت له دنيا جديده .

مسكين ابن خلدون ، كتب مقدمته والعالم الإسلامي في حالة احتضار ، فبدا كما لو أنه يقف على الأطلال يبكي ، ويثير العبرة ، فالدنيا دول ، والقمر يصبح بدراً ثم محاقاً ، والطفل يصبح شاباً ثم شيخاً ، والملك لله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن شاء .

ومسكين العقاد أيضاً ، كان يحلو له أن يقرأ كثيراً عن الحشرات ، كان يراها مسودة الإنسان ، كان يتحدث عن الحتمية البيولوجية التي تسير الإنسان .

وامتدت يده إلى المصحف الشريف ، وأخذ يتلو الآيات الكريمة عن هلاك عاد وثمود وقوم تبع ، إنه لا يحس هنا نبرة رثاء وبكاء ، إنه يحس بنبرة استنفار ، لكي نتجاوز الغصة ، ونعلو فوق الغثيان ، وتذكر كلاماً

لعمر بن الخطاب رضي الله عنه إنه يشبه في مضمونه كلام ابن خلدون ، ولكنه يختلف عنه في النغمة ، إن عمر في كلامه لا يبكي على الأطلال ، ولا يتحدث بنغمة الرثاء ، ولا يثير الأحزان والأشجان ، إنه يتحدث والحضارة الإسلامية في كمالها وقوتها ، وهو يريد أن يتدخل حتى لا تفقد قوتها ، وحتى لا يجري عليها ما جرى لمن لا يعتبر ، وتذكر من جديد حلمه القديم ، وتذكر الغزالة التي تمضي في طريقها وهي تغني منتشية ، وتمنى أن يكتب قصة " اليمامة العنيدة " ، ثم تساءل :

حقاً ، إن البدر قد يصبح محاقاً ولكنه يبزغ من جديد ، وحقاً إن الإنسان قد يصبح شيخاً ولكن طفله يعاود السيرة من جديد ، وحقاً إن الحشرات قد تكون مسودة الإنسان ولكن الحضارات لا تصنعها المسودات .

عند هذا الحد لمح في الأفق شهاباً ثاقباً ، يضيء ، ثم يستطيل ، ثم ينقض على الجن والعفاريت ، فصاح : مدد يا سيدنا الخضر .

٧

اليمامة المضروبة •

وأنا صغير أجوب الخلاء ، أرفع رأسي ، إذ أسمع فوقي رفيفاً مضطرباً لطائر يحرق ، إنها يمامة مضروبة ، تهوي .

ها هي ذي فرصة سانحة للحصول على يمامة بلا عناء ، وأطير وراءها .

هأنذا أجري ، واليمامة تهوي ، ضربها أحدهم دون أن يصيبها في مقتل (أفكر في كونها ستقع بمكان قريب) .

جناحها مضروب ، لكنها عنيدة ، أجري أنا ، تحت ، وترفرف هي فوق . تهبط رويداً رويداً حتى أكاد ألمسها ، أرفع يدي قافزاً لأنالها ، لكنها تنفلت ، تنطلق بأسرع ما تقدر ، وتسقط من جناحها المضروب قطرة حمراء ساخنة ، تبل يدي ، تطير فوق حقل مشتول ، أخوض لألحق بها ، لاهثاً ، فتنغرز قدماي في الطين ! ها هي ذي تبتعد وأنا مغروز ، أدرك أنها أفلتت وأنني لن أمسك بها أبداً ، أمسح قطرة دمها التي جفت وغمقت على يدي ، وهي – اليمامة المضروبة – أراها هناك نقطة رفيعة .

• في مجموعة " الآتي " بقلم : محمد المخزنجي .

٨

امتدت إليه يد ، كان صاحبها يلبس لباساً أبيض ، ويتمنطق بحزام أخضر ، فعرف للتو أنه الخضر .

سحبه إلى أعلى في طريق نوراني كأنه البحر الفضي أو الكوكب الدري ، حتى وصل به إلى مكان فسيح ، يشع نوراً من كل اتجاه ، وتحيط به الأنهار من كل جانب هذا نهر من ماء غير آسن ، وهذا نهر من عسل مصفى ، وهذا نهر من لبن لم يتغير طعمه ، وهذا نهر من خمر لذة للشاربين .

كان هناك قوم يجلسون على سندس خضر ، على وجوههم نور الشهداء وسكينة العلماء ، تحيط بهم رائحة من البخور ، تعبق المكان وتثير الخدر .

كانوا يقرءون في كتب التاريخ ، يستخلصون العبر والعظات ، ثم يقدمون الخلاصة على هيئة وصايا ، مركزة ومنغمة ، كأنها الحكم النادرة أو الأمثال السائرة .

٩

يقوم أحدهم لينشد الوصية ويجاوبه آخر ، ثم ينخرط الجميع في صوت واحد ، تهتز له جنبات الساحة :

" الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر الله أكبر ، ولله الحمد".

وتذكر على الفور أناشيد العيد في قريته ، الإمام ينشد ، ويجاوبه الجميع بهذا التهليل ، في نغمة ابتهاج وانتصار .

وأحس بطائره ينتعش ، ينهض ، يتصلب في السماء ، جناح في الشرق وجناح في الغرب ، يظلل الجميع ، كأم تحنو على أولادها .

١٠

تقدم رجلان ، كان أحدهما يكبر الآخر ، لمح وراءهما شريطاً يتحرك كأنه "الشاشة" المضيئة ، كان هناك آلاف من الحجاج ، يتجولون في المسجد الحرام ، هذا تركي ، وهذا أفغاني ، وهذا صيني ، وهذا إفريقي ، وهذا أمريكي ، وهذا أيرلندي .

ثم تبدل المنظر فكانت هناك قباب ومآذن تتبادل أمكنتها ، هذا هو الأزهر الشريف ، وهذا جامع الزيتونة ، وهذا مسجد بخاري ، وهذا جامع القيروان ، وهذا مسجد قرطبة .

كان الأول هو الأفغاني ، وكان الثاني هو محمد إقبال .

تقدم الأفغاني ، يستخلص تجربته ويتحدث عن أن الإسلام هو روح الثورات في العصر الحديث ، وأنه يطلق روح المقاومة ، وعن طريقه دك العروش وهز الصروح ، فليس هو أفيون الشعوب ، يخدر الجماهير ، ويؤازر السلطة ، بل هو ثورة ووعي ، ثم قدم الوصية الأولى :

" الإسلام مفجر الثورات ، ضد الظالمين والطغاة "

وحاوبه إقبال يستخلص العبرة ، ويذكر أنه قد قرأ كتب الفلسفة ، وعاش في بلاد أوروبية ، وحاور وجادل ، وأيقن أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، لأن مبادئه متجددة ، لا تقف عقبة أمام المنجزات الحديثة ، وأنه من أجل ذلك ساهم في إنشاء حكومة عصرية تقوم على المبادىء الإسلامية ، وهي دولة باكستان ، ثم قدم الوصية الثانية :

" الإسلام تجديد لما هو آت ، فلا تكن عبداً لكل من مات "

وتشابك الاثنان في نغمة واحدة ، يتلوان الوصية الثالثة :

" الدين يحيي الشعوب والرفات ، فلا تصدقوا ما قيل من ترهات "

عندئذ اهتزت رءوس الحاضرين ، وتمايلت الأبدان ، وانخرط الجميع في إيقاع واحد :

"الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر الله أكبر ، ولله الحمد".

١١

وبهذا تعلم أن المنع من التقليد إن لم يكن إجماعاً فهو مذهب الجمهور .

ويؤيد هذا ما سيأتي في المسألة التي بعد هذه من حكاية الإجماع على عدم جواز تقليد الأموات ، وكذلك ما سيأتي من أن عمل المجتهد برأيه إنما هو رخصة له عند عدم الدليل ولا يجوز لغيره أن يعمل به بالإجماع ، فهذان الإجماعان يجتثان التقليد من أصله ، فالعجب من كثير من أهل الأصول حيث لم يحكوا هذا القول إلا عن بعض المعتزلة .. وقد ذم الله تعالى المقلدين في كتابه العزيز في كثير من الآيات ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة** ﴾ ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله** ﴾ ﴿ **إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل** ﴾ وأمثال هذه الآيات ، ومن أراد استيفاء البحث على التمام فليرجع إلى الرسالة التي قدمت الإشارة إليها ، وإلى المؤلف الذي سميته " أدب الطلب ومنتهى الأرب" .

(الشوكاني)

١٢

ثم وقف اثنان يمسك كل منهما بيد الآخر ، تبدل المنظر ، ووجد أمامه صحراء عربية ، لا معة الرمال ، تبرق كأنها الذهب ، ولمح نخلته تترامى في الأفق ، وتتراقص أشعتها كعرائس الجان ، كان خلفها هلال صغير يسبح في الفضاء كزورق من فضة .

كان أحدهما هو الجبرتي ، والآخر هو لطف الله جحاف .

تكلم الجبرتي وأخذ يقرأ من كتابه " عجائب الآثار " قصة سليمان الحلبي،شاب من الشام ، جاور في الأزهر الشريف ، وتتلمذ على يد علمائه الأجلاء ، ساءته الحملة الفرنسية ، فعزم على الانتقام ، وطعن كليبر بمدية نافذة ، وجعل الجبرتي يقدم الوصية الرابعة :

" مصر والعروبة أخوان ، فهما أبداً لا يفترقان "

وجاوبه لطف الله جحاف ، يتلو من كتابه "دور نحور الحور العين" قصة المجاهدين في مكة ، أفزعهم أن يهجم الكفار الفرنسيس على مصر المحروسة ، فدعوا إلى الجهاد ، وجاءوا إلى صعيد مصر ، يقضون مضاجع الكفار ، ويستشهدون في سبيل الله ، ثم قدم الوصية الخامسة :

" العروبة روح في الأبدان ، فاجعلوها أساس البنيان "

وتراسل الاثنان في نفس واحد ، يتلوان الوصية السادسة :

" العروبة درع لمن في مصر أو يمان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان "

واهتزت الرءوس ، وتمايلت الأبدان ، وانخرط الكل في إيقاع واحد :

" الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر الله أكبر ، ولله الحمد".

١٣

ودخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف ، وفيها قام في البلدة الحرام ، بوظيفة الدعاء إلى إقامة شعار سنام الإسلام ، محمد المغربي الجيلاني الهاشمي لما وردت الأعلام ، بما صنعه الكفرة اللئام ، من الهجوم على ساحات مصر ، وتصدر بالحرم الشريف فالتف عليه خلائق ، واستمعوا إرشاده إلى أنهج الطرائق ، وفعل دعاه بالقلوب ما فعل ، وتسامع الناس بأخباره فوردوا إليه ، وبذلوا نفوسهم وأموالهم بين يديه ، وكانت النساء تأتي فتستمع ما يمليه من أحاديث الحض على الجهاد ، فيلقين إلى الحلقة فتخاتهن وعقودهن وملبوسهن ، ويقلن ذلك الذي علينا ، فاجتمعت عنده أموال واسعة ، ووردت إليه المتطوعة من البلاد الشاسعة ، فسار بهم لمناجزة أعداء الله الفرانسة " .

(درر نحور الحور العين)

١٤

وظهر بين الأثل والشوك وسعف النخيل ، وجه لم يغب عن باله أبدا ، كان يراه في كل أخدود من الأرض ، وعلى كل حنية جبل ، وفوق وجوه الفلاحين والفلاحات ، فصاح : إنه عرابي .

وتبعه شيخ جليل حاد النظرة ، تتداخل حبات الشعر في ذقنه العريضة فتبدو كعناقيد العنب أو سباط النخيل ، تذكرت على الفور تلك الصورة ، التي كنت أراها على " الجنيه " الأخضر ، صورة النيل ترقد كعملاق على صفحة الجنيه المصري ، وقد تمدد من شمال الوادي إلى جنوبه ، تحيط به كروم العنب وسنابل القمح ، ويتسلق فوق أكتافه أبناؤه الصغار ، كأنهم الملائكة يرفرفون في جنات خضر . تفرست فيه قليلاً ، فعرفت على الفور أنه الرافعي .

جعل عرابي يتحدث عن ثورة الفلاحين ، كان الناس يظنون صمتهم جبناً وسكوتهم ذلا ، ولكنهم فجأة انطلقوا تحت قيادته يهددون الدخلاء ، كان الزعيم هو شرارة الثورة ، وكانوا هم وقودها وحماتها ، ثم قدم الوصية السابعة :

" الفلاح كنز مدفون ، قد صهرته الليالي والسنون "

وجاوبه الرافعي ، لم يكن يتحدث عن أفراد أو زعماء أو ملوك ، كان يتحدث عن الجماهير المصرية ، وكان يسجل في كتبه دورها في ثورة القاهرة ، وضد الحملة الإنجليزية وفي ثورة ١٩١٩ ، ثم قدم الوصية الثامنة :

" جماهير شعبنا لا يخطئون ، وإن أخطأ المستبدون العادلون "

ثم تراسل الاثنان في نفس واحد ، يتلوان الوصية التاسعة :

" مصر حضارة القرون ، مهما تقول المتقولون "

واهتزت الرءوس ، وتمايلت الأبدان ، وانخرط الكل في إيقاع واحد :

"الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر الله أكبر ، ولله الحمد".

١٥

أبو الهول

" وحفروا حوالي الرأس العظيمة التي بالقرب من الأهرام ، التي تسميها الناس رأس أبي الهول ، فظهر أنه جسم كبير عظيم ، من حجر واحد ممتد كأنه راقد على بطنه ، رافع رأسه ، وهي التي يراها الناس ، وباقي جسمه مغيب بما انهال عليه من رمال ، وساعداه من مرفقيه ممتدان أمامه ، وبينهما شبه صندوق مربع إلى استطالة ، من سماق أحمر ، عليه نقوش شبه قلم الطير في داخله صورة سبع مجسم ، من حجر مدهون بدهان أحمر ، رابض باسط ذراعيه في مقدار الكلب ، رفعوه أيضاً إلى بيت القنصل ، وقيس المرتفع من جسم أبي الهول ، من عند صدره إلى أعلى رأسه ، فكان اثنين وثلاثين ذراعا ، وهي نحو الربع من باقي جسمه " .

(الجبرتي ٥٧٢/٣)

١٦

وتوالت العظات والعبر ، وخشي أن يفوته منها شيء ، فجعل يرددها لكي يحفظها ظهراً عن قلب :

- الوصية الأولى : الإسلام مفجر الثورات ، ضد الظالمين والطغاة .
- الوصية الثانية : الإسلام تجديد لما هو آت ، فلا تكن عبداً لكل من مات.
- الوصية الثالثة : الدين يحيي الشعوب والرفات ، فلا تصدقوا ما قيل من ترهات .
- الوصية الرابعة : مصر والعروبة أخوان ، فهما أبداً لا يفترقان .
- الوصية الخامسة : العروبة روح في الأبدان ، فاجعلوها أسس البنيان .
- الوصية السادسة : العروبة درع لمن في مصر أو يمان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان .
- الوصية السابعة : الفلاح كنز مدفون ، قد صهرته الليالي والسنون .
- الوصية الثامنة : جماهير شعبنا لا يخطئون ، وإن أخطأ المستبدون العادلون .
- الوصية التاسعة : مصر حضارة القرون ، مهما تقول المتقولون .

* * *

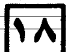
وانتشت نفسه ، وأخذ يحجل طرباً ، وتاه في لذة سرمدية ، حتى ضاعت منه الوصية العاشرة .

١٧

تقدم منه الخضر ، وسكب عليه ماء بارداً وهو يتلو

﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ،إن علينا جمعه وقرآنه ﴾

ثم ألقاه وحده في جوف الفضاء ، فأحس أنه خفيف كمسافر قد تخلص من متاعه .



تخلى عنه الخضر ، ووجد نفسه نشيطاً ، يخب وحده في السماء ، وجاءه صوت من داخله :

" أنت خضر نفسك ، فنقب عما في قلبك "

فعرف أنها الوصية العاشرة التي كان قد افتقدها ، فحمد الله واستشعر الثقة .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ
عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾
ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾
مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً
أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ
يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ
ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ
ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾

٢٠

كان قاب قوسين أو أدنى ، وأحس بنشوة ناعمة كأنها الحرير ، وبخدر لذيذ يسري في أعضائه ، أغمض عينيه ، وكاد يتوه في حلم جميل كأنه الموسيقى .

لولا أن جاءه صوت لا يعرف مصدره ، لم يكن صوت إنس أو جان ، ولم يكن صوت بشر أو ملائكة .

كان صوت طائر كأنه " الكاه " ، لم ير طائراً مثله وإن أحس كأنه يعرفه منذ آلاف السنين ، تفرس فيه فتعرف على روح الآباء والأجداد ، وأدرك أنه الطائر الذي يجول كل مساء في سماء المنطقة ينتظر الموعودين .

قال له طائره بصوت كأنه النذير : " أفق حتى لا تضيع منك رسالة الغفران فتفقد طريقك إلى الجنان " .

ثم سلمه صحيفة مكتوباً عليها " رسالة الغفران " .

٢١

رسالة الغفران

لا تفرط في السكر ، ولا تطل المكث في مقام الفناء ، تزود ثم عد ، عليك بمقام البقاء .

الله رحيم فكن أنت رحيما	وهو قوي فكن أيضاً قويا
الله غفور فكن أنت غفورا	وهو متين فكن أيضاً متينا
الله سلام فكن أنت سلاما	وهو قدير فكن أيضاً قديرا
الله غفار فكن أنت غفارا	وهو قهار فكن أيضاً قهارا
الله مؤمن فكن أنت مؤمنا	وهو مهيمن فكن أيضاً مهيمنا
الله ودود فكن أنت ودودا	وهو منتقم فكن أيضاً منتقما
الله حليم فكن أنت حليما	وهو كبير فكن أيضاً كبيرا
الله رحمان فكن أنت رحمان	وهو متعال فكن أيضاً متعاليا
الله شكور فكن أنت شكورا	وهو قوي فكن أيضاً قويا
الله رءوف فكن أنت رءوفا	وهو عزيز فكن أيضاً عزيزا
الله نور فكن أنت نورا	وهو شديد فكن أيضاً شديدا
الله عفو فكن أنت عفوا	وهو منتقم فكن أيضاً منتقما
الله تواب فكن أنت توابا	وهو جبار فكن أيضاً جبارا
الله بر فكن أنت برا	وهو متكبر فكن أيضاً متكبرا
الله حليم فكن أنت حليما	وهو مغيث فكن أيضاً مغيثا
الله سميع فكن أنت سميعا	وهو بصير فكن أيضاً بصيرا
الله قابض فكن أنت قابضا	وهو باسط فكن أيضاً باسطا
الله مقدم فكن أنت مقدما	وهو مؤخر فكن أيضاً مؤخرا
الله معز فكن أنت معزا	وهو مذل فكن أيضاً مذلا
الله خافض فكن أنت خافضا	وهو رافع فكن أيضاً رافعا
الله نافع فكن أنت نافعا	وهو ضار فكن أيضاً ضارا
الله ظاهر فكن أنت ظاهرا	وهو باطن فكن أيضاً باطنا



ووجد نفسه يردد الاسم الأعظم وما يقابله ، وواظب على ورده الجديد عقب كل صلاة جماعة ، يلتمس به الغفران .

حينئذ أحس بالامتلاء والتكامل ، وبأنه يضم الشرق والغرب معاً بين فكيه .

٢٣

تساءلت ؟

مسكين أبو العلاء ، على الرغم من ذكائه وفلسفته وقدراته العقليــة فإنــه دائماً يضيع ، لقــد افتقــد شيئاً أكبر مــن الذكــاء ، شيئاً لا يــأتي بالذكــاء والاجتهاد ، وإنما يقذفه الله في قلب عباده .

مسكين أبو العلاء ، إنه مطرود من رحمة الله ، ضل الطريق ، فلــم يصــل إلى اليقين .

مسكين أبــو العــلاء ، أراد أن يدخــل الجنــة مــن غــير طريقهــا ، أراد أن يعتمــد علــى ورقــة دون أن يفهــم مضمونهــا ، أراد الغفــران دون أن يحمــل الرسالة .

مسكين أبو العلاء ، حين ضاعت منه الورقة ، أراد أن يتسلق علــى ظهــر امرأة ، وأن تحمله زيزفونة في غفلة من الحراس والملائكة .

مسكين أبو العلاء ، جــزاه اللــه مــن جنــس عملــه ، جنــة مــن العفــاريت والجان ، جنة خير منها الجحيم.

٢٤

لم أجد الرسالة غريبة عليّ ، كأنها كانت محفورة في قلبي ، كأنها في ذاكرتي منذ الصغر ، أحسست بالنشاط والخفة ، وكنت أقوى من السموات والأرض والجبال ، إنني الآن أستطيع أن أحمل الأمانة ، لن أجهلها ، ولن أظلم نفسي ، فقد عرفت اليقين .

أحسست أنني أقبض على الشرق والغرب معاً ، وأخذت أردد :

الله رحيم فكن أنت رحيما وهو قوي فكن أيضاً قويا

تضاءلت من ذاكرتي صورة صاحب البيت مع أصحابه ، كنت أراهم في طفولتي تحت السلم ، في ظلام لا يكشف عن ملامحهم ، كأنهم الأرواح الخفية ، كانوا يرددون : الله ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر .... إلخ .

كانوا يكررون ، ويكررون ، ثم يغيبون في لذة سرمدية .

الآن تضاءلت تلك الصورة ، وحلت محلها حياة جديدة ، لن أقنع بالظلام ، ولن أعيش في الدهاليز ، ولن أتعامل مع الأرواح الخفية .

وصحت : سأعبد الله بين الناس ومع الناس ، سأحقق الرحمة والقوة معاً سأقبض على الشيئين معاً ، سوف أكون أقوى من الشرق والغرب معاً .

وكانت تلك صلاتي وهديتي من طائري الأليف .

٢٥

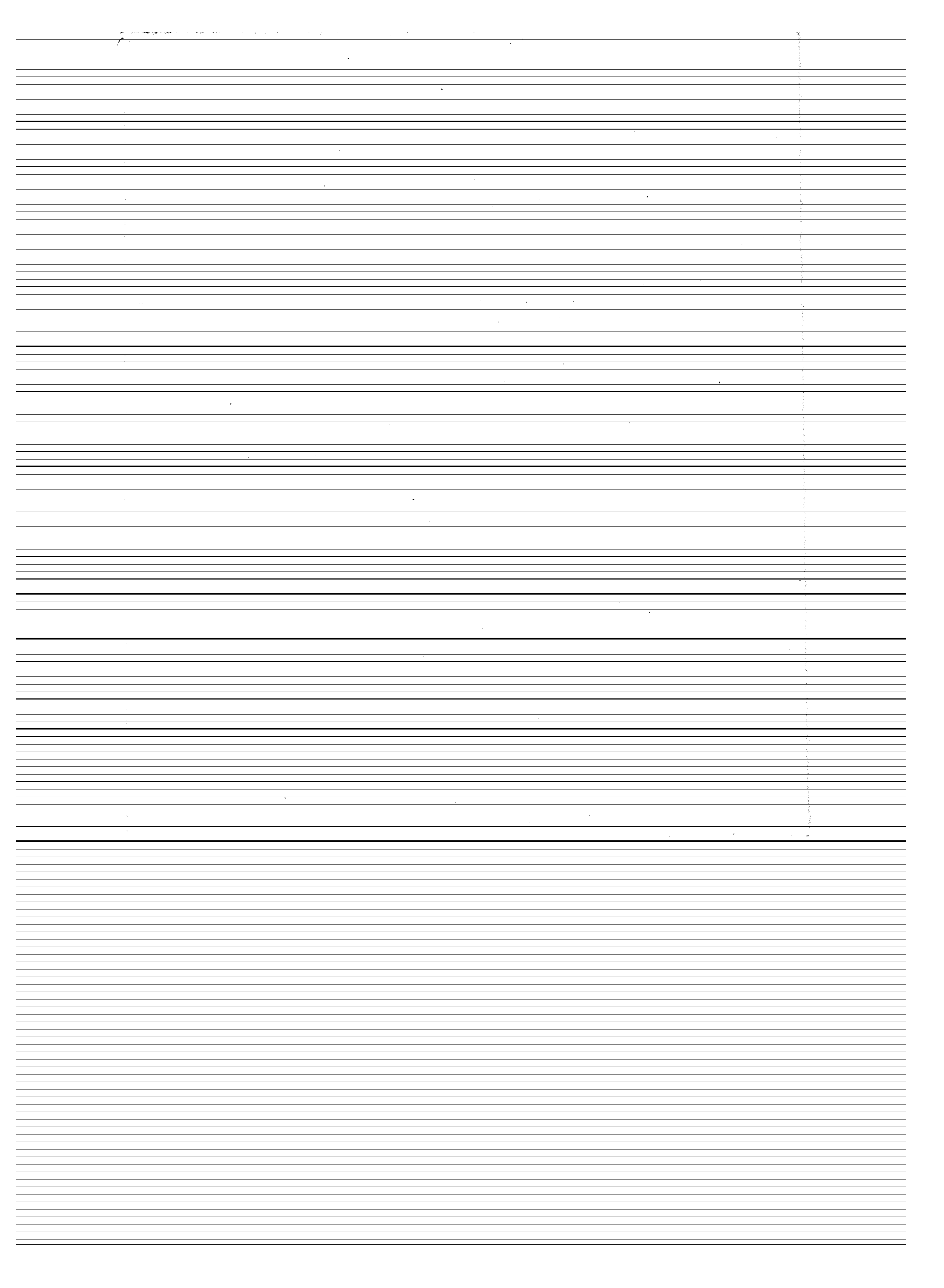
تاقت نفسي إلى نخلتي ، لم أعد أراها وحيدة ، ولم أعد أرى الصغار يرمونها بالحجارة ، كانت تراهم من بعيد ، فتطامن وتتطامن حتى تصل إلى قامتهم ، فيجنون منها الثمار بأيديهم ، ويعبون منها ما يريدون ، ثم تعود إلى مكانها شامخة تضرب في أجواز السماء .

أحسست بالهدوء ، ولم أعد أفكر في كتاب " الوسطية العربية " فقد علمتني النخلة أن أعطي دون انتظار .

الخاتمة

كان اليوم هو يوم السابع والعشرين من شهر رمضان الكريم ، وكان نور الفلق قد أخذ يملأ الأرض ، قمت من مكاني وأنا أصيح " اللهم إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي " .

وأحسست بالبعث الجديد .



الفهرست



من مؤلفات

الأستاذ الدكتور عبد الحميد إبراهيم

– قصص الحب العربية :

الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨م .

– من قصص العرب : الطبعة الأولى سنة ١٩٦٧ .

– قصص العشاق النثرية : دراسة في التراث القصصي .

الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢ ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٨ .

– القصة المصرية وصورة المجتمع الحديث : الطبعة الأولى سنة ١٩٧٣ .

– الأدب وتجربة العبث : الطبعةالأولى سنة ١٩٧٣ .

– القصة اليمنية المعاصرة . الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٦م .

– ألوان من القصة اليمنية المعاصرة .

الطبعة الأولى سنة ١٩٨١ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٥م .

– الوسطية العربية (٦ أجزاء) :–

الكتاب الأول : المذهب ، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩ ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٠.

الكتاب الثاني : التطبيق ، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٦ .

الكتاب الثالث : نحو وسطية معاصرة ، الطبعة الأولى سنة ١٩٩١ .

الكتاب الرابع : نحو رواية عربية ، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥ .

الكتاب الخامس : حلم ليلة القدر : رواية عربية ، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥ .

الكتاب السادس : القرآن الكريم والمذهب الوسطي (تحت الطبع) .

– المسرح المصري بين ثلاثة أجيال : الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢ .

– القصة القصيرة في الستينيات :–

الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨ .

– القصة القصيرة في السبعينيات :

الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٧ .

– لقطات : ألان روب جرييه (ترجمة) : الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥ .

– الرعشة الأولى وهؤلاء الأدباء :

الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦ ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٤ .

– مقالات في النقد الأدبي (١٥ جزءاً) :

الجزء الأول سنة ١٩٨٨ ، الجزء الخامس عشر (تحت الطبع) .

– قاموس الألوان عند العرب : الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩ .

– نقاد الحداثة وموت القارئ : الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥ .

– نوادر الحب والحكمة : سلسلة من تراثنا القصصي العدد الأول سنة ١٩٩٥.

– الرواية العربية والبحث عن جذور (تحت الطبع) .

– الرواية العربية والبحث عن شكل (تحت الطبع) .

– القصة القصيرة والبحث عن شكل (تحت الطبع) .

– التراث القصصي عند العرب (تحت الطبع) .

– الأدب المقارن من منظور الأدب العربي (تحت الطبع) .

– مشاهد وشواهد (تحت الطبع) .

– قال لقمان لابنه (تحت الطبع) .

من أوراق طه حسين : الجزء الأول (تحت الطبع) .

رقم الإيداع	١٩٩٥/١٠٣٠٢
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5132-1

٣/٩٥/٣١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

